

البربر

تأليف: عثمان الكعاك
أعدّه للنشر: تامغناست



الفصل الرابع

البربر في العصر الإسلامي

البربر منتشرون في النصف الشمالي من قارة افريقيا ويتوزعون على الترتيب التالي:

1 - البربر في مصر:

عندما خرج البربر من جزيرة العرب استوطنوا مصر أولاً. ثم استوطنوا الممرقية، وهي منطقة الحدود المصرية الليبية، وفي عهد الفاطميين انتقل كثير من كتامة، وهو جند الدولة الفاطمية الفاخون، ومصمودة وصنهاجة إلى مصر فاندمجوا في الشعب المصري وعلاوة عن البربر المندمجين في الشعب توجد في شمال مصر قرية بربرية بحتة تسمى سيوة أو واحة عمون، ومازال أهلها إلى الآن يتكلمون لهجة بربرية بحتة ولهم عادات بربرية واضحة.

2 - البربر في ليبيا:

ليبيا هي الموطن الثاني للبربر وهي التي نشأ فيها بربر لوبو الأولون الذين نسبت إليهم البلاد "لوبيا" وهي بخاصة موطن هوارة القبيلة البربرية الكبرى، وفي العهد الروماني أُنجبت سياسيين كباراً أو علماء عظاماً، أمثال الإمبراطور سبتيموس

سافاروس. وفي العصر الإسلامي قام البربر بدور أساسي في فتح افريقية، ثم انقلب معظمهم إلى الإباضية وصاروا تابعين لدولة بني رستم بالجزائر لاسيما بربر جبل نفوسة. وفي عهد صنهاجة في القرن الخامس الهجري قامت بطرابلس دولة بني خزوان البربرية.

وينقسم بربر ليبيا اليوم إلى ثلاثة أقسام:

أ - بربر برقة:

وهم قليلو العدد بالمقارنة إلى العرب ومنهم البربر الخاص وأشهرهم سكان اوجيلة وهم مازالوا يتكلمون البربرية، ومنهم البربر المتربعون أمثال سكان جالو والزاوية والفواتر وغيرهم.

ب- بربر الجهات الغربية الصحراوية:

وغالبيتهم من السمر والسودان وأشهرهم أهل فزان وهم قدماء معروفون ومنهم الطوارق من الأبريين والاماشاق والتاماهوق الذين هم منحدرين من بربر تاماهو الذين ورد ذكرهم في المعالم الفرعونية المصرية الراجعة إلى الأسرة الثامنة عشر ثم قبائل التبو التي هي زغبة بربرية وهي خط الصلة بين قلب الصحراء والوجه البحري.

ت- بربر الجهات الشمالية:

وأغلبهم سكان جبل نفوسه بنالوت وجادو وسيناون. يبدأ الخط من غدامس شمالا وغات جنوبا ويستمر مشرقا بين الجبال إلى أن ينتهي إلى زوارة على البحر. وكل هذه الجهات بربرية اللغة

وفيهما آداب بربرية كثيرة وكتب في الإباضية وطبقات العلماء يحتفظون بها. وقد حاول الإيطاليون أن يلعبوا الورقة البربرية ضد العرب والكوارغلية والأتراك، ولكن مساعيهم ذهبت أدراج الرياح، فقد وجدوا أمامهم أمة متحدة كالبنبان المرصوص واللغة البربرية في الجبل في تناقض بسبب انتشار التعليم الابتدائي.

3 - البربر في تونس:

إذا استثنينا متبقيات البونقيين الباقية في استنار في بعض واحات الجنوب الشرقي، وبعض متبقيات الرومانيين المندمجين في السكان، والجالية التركية الضاربة بثغور الشواطئ التونسية فإن قرارة الشعب التونسي مترتبة من بربر وعرب على نسبة أصلية بربرية من 27 هـ إلى 444 هـ ثم على نسبة ثلثين من البربر وثلث من العرب بعد سنة 444 حينما زحف بنو هلال وبنو سليم على تونس فحفظوها دما عربيا فتيا جديدا، ثم على نسبة تساوي أو قريب من التساوي حينما تعربت أكثرية القبائل البربرية، فالنتيجة الآن هي أن الشعب التونسي يتركب في معظمه مما يأتي:

أ- عناصر عربية أولى من قبائل الفتح تسكن المدن على الخصوص وبخاصة القيروان- أو جهات ما تزال تحمل اسم القبائل العربية الأولى مثل قضاة قرب باحة وبرهة الكاف والقرشيين في الوطن القبلي، والأنصاريين قريبة طبرية، الكلبيين قرب عين الغلال والأرديين قرب قنطرة بنزرت، ولكن هذه الجوالي العربية

الأولى مندمجة في المجتمع غير متميزة.

ب- عناصر قبائلية من هلال وسليم ماتزال موسومة بالصفات القبلية تعيش عيشتها في نظام العروش في جهات بعينها مثل بني زيد والهمامة والثالث ودريد ورياح.

ت- عناصر بربرية أصلية قد تعربت وزالت عنها غالب الصفات البربرية مثل أولاد عيار وماجر وأولاد عون.

ث- بربر مسلمون خالصون مخلصون عرب في لغتهم أو مشاركون في لغاتهم بين العربية والبربرية مثل وشتاتة وخمير ونفرة مقعد في الشمال، وورتيان والفرانشيشي في الجهات الغربية وورغمة وغمراسن ومطماطة في الجهات الجنوبية الشرقية.

والذي نلاحظه هو أن البربر يسكنون في الغالب الجهات المنقطعة من جبال وصحاري وجزر لتوالي الغزوات على بلادهم من بونيقين ورومان ووندال وبيزنطيين وعرب وأسبان وترك وفرنسيين وإيطاليين فتدحرهم الأمم الغازية إلى الجهات المنقطعة وهي:

1 - الجزر:

مثل قرقنة وجربة بالإضافة إلى تونس الحالية: ومالطة وصقلية وسردانية بالإضافة إلى تونس الكبرى فيما سلف، وما تزال بجربة أسماء القبائل البربرية الكبرى مثل الماي أي لماية، وسديوكش ومستارة وأراكو كما ان مالطة منسوبة إلى عائلة مليتة البربرية الكبرى التي جُد بقاياها في مليتة فقرقنة وثلة مليتة بالشمال الغربي التونسي.

2 - الأنهار:

غالب الأنهار التونسية تنسب إلى قبائل بربرية موجودة أو مندثرة مثل مجردة وناسة وسليانة وفوشانة ووزارة ومعظم هذه الأسماء من القبائل التي أوردها ابن خلدون.

3 - الجبال:

مثل وشتاتة وخمير ومقعد ورتنات ورسلات ومطماطة.

وأهل الجبال يسكنون الأكواخ المغطاة بالمقاصب المتوارية في كثيف الغابات بجهات خمير، والقرى العالية الموضوعة كعشوش النسور في قمم الجبال وتسمى القصور في الجهات الجبلية الشمالية الأخرى مثل إقليم معقد وإقليم زغوان، ويسكنون الغرف المنقورة في الصخر في الجنوب الجبلي التونسي.

4 - الواحات:

في الجنوب في الجهات المنبسطة مثل الزارات وتامزرت وتستمر هكذا إلى مدينة غدامس نفسها.

5 - المدن:

والبربر في المدن يؤلفون جاليات متميزة بالسكنى في حارات بعينها، وبالصناعات في مهن بعينها وباللباس في أزياء بعينها، وفي اللغات في لهجات بعينها عربية أو بربرية والجريون والدويرات وتامزرت والميزابيون والوارقلية لهم أحياء بعينها أو أنهاج بعينها وأسواق بعينها أو وكلاآت سكنى بعينها والجريون يتعاطون التجارة في أقلام معينة ودكاكين معينة وفي أسواق

معينة حسب تقاليد بعينها وإن كان سير الاقتصاد اليوم قد دفعهم إلى استقلال وتختر متزايدين والدويريات يتعاطون في الغالب الخياطة والحماله وبيع البقول والثمار هذه الطبقات من البربر بأزيائهم ولهجاتهم العربية والبربرية. غير أن سير العلم والاجتماع قد اخذ يكسر إطارهم الأصلي فنجد البعض منهم يسكن القصور الشامخة وقد ارتقى العلم بعناصر منهم فتكاثر من بينهم المحامون والأطباء والصيدالة والمهندسون والأساتذة ورجال الصحافة والسياسة والعلماء والكتاب والشعراء.

العادات والعقائد:

وللبربر التونسيين عادات وعقائد موروث أخذت تزول على مر الدهور كما أن اللهجات البربرية قد ماتت في جهات كثيرة مثل خمير والوطن القبلي وهي في تناقض ولم تبق إلا بالسند وتامرت وجهات من جربة مع كثرة امتزاجها بالمفردات العربية وقد تعرب البربر وصاروا من زعماء الإسلام وأنصار الآداب العربية فزالَت القضية البربرية من تونس منذ قديم.

الدولة البربرية بتونس:

يظهر أن يوغورطه اتخذ عاصمته قرطبة التي هي الكاف لا قرطبة التي هي قسنطينة على أن سيفاكس اتخذ من الجنوب الشرقي التونسي مملكة جعل عاصمتها صفاقس المنسوبة إليه أو بالأحرى بلدة طينة التي لا تبعد عنها إلا قليلا. وفي عصر الاحتلال الروماني ولي عدد من بربر ليبيا (سبتيموس سافاروس)

ومن بربر تونس (آل غوردانوس وغيرهم) الإمبراطورية الرومانية، وغوردانوس هو الذي بنى قصر الجم (تيسدروس) إكراما لأهل بلده الذين انتخبوه إمبراطورا على الرومان.

وفي العصر العربي شارك البربر منذ الأول في الفتوحات الإسلامية، ورموا بسهم مصيب في الدولة الأغلبية وقامت دولة الفاطميين على كاهل كتامة، ثم استقلت صنهاجة بالحكم (361-555) وقامت بعدها الدولة الحفصية التي سمت إلى مقام الخلافة وباعها أهل الجزائر والأندلس والسودان والحجاز.

ومع أن بلاط الفاطميين والصنهاجيين والحفصيين كان يستعمل البربرية فإن غالب الملوك الصنهاجيين والحفصيين كانوا من خطباء العربية وشعرائها.

ويظهر أن المشادات العنيفة بين الولاة والقبائل البربرية العظمى وهجرم الأعراب سنة 444 قد فتتت القبائل البربرية التونسية فانتشرت في البلاد شذرا وزادت تعربا بالنهاية والتحمت العناصر القومية فكونت شعبا متزجا عربي النزعة إسلامي الدين عربي الثقافة.

4 - البربر في الجزائر:

لعل مكان التقاء البربر الواردين من شمال أوروبا والبربر الواردين من اليمن عن طريق مصر وليبيا هو وادي شلف الذي يقسم الجزائر نصفين غربي وشرقي وهو ميدان التنارع الكبير على طول الدهر بين مضمودة الغربية وصنهاجة الشرقية. ولعل

الجزائر أيضا هي محل التقاء البربر الليبيين الشماليين والبربر الصحراويين المتمزجين بالزنوج. فنحن نشاهد بالجزائر طبقات مختلفة من البربر تنقسم إلى الأقسام التالية :

أ- بربر الشمال :

بالجهات الشمالية الواقعة على طول الساحل من القالة شرقا إلى أرزاو غربا. من جبال وشتاتة وادوغ المجرجة والونشريس. وغالبهم من كتامة في بلاد القبائل الصغرى. وزاوة الشمالية الغربية. ويعلم الناس جميعا ماذا كان دور بني يفرن في المنازعات بين دول المغرب ودول الأندلس. ودور كتامة في مناصرة بني عبيد الفاطميين المنازعين للاغالبة في القرن الثالث. وقد استطاع هؤلاء البربر الشماليون ان يبنوا دولة كبرى في القرن الثالث ثم الثاني ق.م. فاسس يوبا الأول ثم يوبا الثاني الكاتب العالم الأديب المتأثر بالحضارة اليونانية دولة موريطانيا القيصرية بمدينة شرشال قرب عاصمة الجزائر اليوم.

كما استطاع سيفاكس أن يبني دولة كبرى بنوميديا جعلها إمبراطورية عظمية.

وفي أوائل القرن الخامس الهجري انفصل فرع من الصنهاجيين القائمين بالمهدية. فاسس دولة بني حماد الزيرية الصنهاجية في قلعة بني حماد أولا. ثم في بجاية ثانيا كان لها شأن سياسي وعلمي وثقافي واقتصادي وفني عظيم. وفي القرن السابع الهجري أسس الزبانيون من بني عبد الوادي البربريين الدولة الزبانية العبدوادية بتلمسان فكانت من أكبر

دول الإسلام شرقا وغربا ودامت إلى الاحتلال التركي في القرن العاشر.

ب- بربر النجاد العليا:

هم البربر المتحررون الذين اقلقوا راحة الفينيقيين. وأوقفوا فتوحات الرومان فبنوا ضدهم سلسلة من الحصون سموها ليمس أي الحد. وخصوصا بربر جبل الأوراس الذين هم شديدي المراس. واضطر الرومان لكي يهنأ لهم بال بالبلاد التونسية أن يتخذوا بحيدة معسكرا رابط فيه الفيلق الثالث الأوغسطي. ثم يتوالى فتوحاتهم نقلوه بالنهاية إلى لبيز. وعلم الاغالبة في القرن الثالث الهجري أن "مر" تبسة بين الجبال فج يتسرب منه البربر المهاجمون للقيروان فأسسوا معسكرا ببلزمة وضعوا فيه خمسة آلاف من الفرسان القيسيين من العرب بخيولهم العربية. ليكونوا لهم درعة. حتى إذا ما ستصفي زيادة الله الثالث آخر ملوك الاغالبة تلك الفيالق القيسية خلا الجو لبربر كتامة العاملين لحساب الفاطميين فانتصروا على الاغالبة وقضوا على دولتهم.

وغالب بربر النجاد العليا من قبيلة ورقجومة وأكثرهم من الخوارج الذين نازعوا العرب الحكم بعد دخولهم في الإسلام. وطالما استولوا على القيروان واقلقوا بال الولاة إلى أن أسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية. فاسس بنو رستم الدولة الرستمية في مدينة تاهرت بالجزائر وهي أول دولة بربرية بحتة قامت في الإسلام وكان لها شأن عظيم وأخبارها مشهورة.

ت- بربر التخوم الصحراوية:

ومنهم البيض والسممر والوسد، يعيشون في الواحات عيشة قرار ويتصلون بالسودان من ناحية وبالسواحل من ناحية أخرى على وجه الهجرة للعمل أو الترحال لتسيير القوافل التجارية فهم خط الصلة بين قلب الصحراء والوجه البحري، وهم المنظمون للقوافل الصحراوية البحرية منذ عهد الفينيقيين فيتصلون ببرقة وطرابلس شرقا، وبالجزائر وهران شمالا، ويؤسسون مشابك واحاتهم على العيون أو الأودية الظاهرة أو النقارات التي يحفرونها على العرق الكبير ذلك النهر الباطني العظيم الذي يخترق جنوب الجزائر، وأهم مشابك واحاتهم: وادي سوف ووادي ريغ ووادي ميزاب وورقلة (ورجلان)، وقد ألفوا هناك منذ أقدم العصور دويلات مختلفة الشأن لاسيما بعد أن قضى العبيديون على دولة الرستميين، ومن أهم دويلاتهم دويلة بني جلاب بتقرت وغالب مدنها عواصم للآداب الاباضية بالبربرية أو بالعربية فقد أُنبت ورقلة (ورجلان) علماء كثيرين كما أُجبت ميزاب علماء يشار إليهم بالبنان أشهرهم الشيخ اطفيش رحمه الله، ويمتاز الميزابيون بالمشاركة بين النشاط العلمي والنشاط التجاري في دائرة كبرى من عمان إلى زنجبار إلى مصر إلى أقصى المغرب.

ث- بربر الصحراء

ينتهون إلى بحيرة تشاد ونهر السينغال جنوبا ويرتفعون شمالا في صميم البلاد الجزائرية إلا الهكار وعاصمته قامراست

عاصمة الطوارق المثلثين أسود الصحراء، وقبائل توات بعين صالح وقبائل الفجيخ وغالبهم يتبعون طرقا معينة أشهرها التجانية وزاويتها الأم بعين ماضي ولهم مدارس وديار كتب وعلم إسلامي منتشر وهم حفظة الدين وناشروه بالصحراء، وبربر الجزائر يشعرون بأنهم عرب عاربة من اليمن ويعتصمون بالإسلام كل الاعتصام ويتمسكون بالعروبة كل التمسك، وامقت شيء لديهم أن ينسبوا إلى البربرية، وقد بنوا بالجزائر دولا إسلامية كبرى أولها دولة بني رستم بطاهرت التي عاصرت الأغالبة في شرق المغرب والأدراسة في غربه؛ ثم دولة بني حماد بقلعة بني حماد أولا وبجاية بعد ذلك، ثم دولة بني زياد أو بني عبد الوادي بمدينة تلمسان وكانت معاصرة للحفصيين.

ومائة وثلاثون عاما من الاحتلال الأجنبي لم تقتل العربية ولا الإسلام ولا حادت بالبربر عن شعورهم الإسلامي وجامعتهم العربية، بل إن أكثر المناصرين للدين واللغة أو من أكثرهم على الأقل هم البربر، وقد انتشرت في صميم بلادهم مدارس جمعية العلماء الفاضلة فلاقت جأحا مدهشا وصار البربري الصغير يتكلم الفصحى ببلاغة ولا يعرف الدارجة، وفضل جمعية العلماء في هذا الباب لا ينكر بل يذكر فيشكر، وإذا ذكر المؤرخون في يوم غد مزايا الجمعيات الإسلامية مشرقا ومغربا كان فضلها في المقدمة وكتبت لها البطولة في هذا الميدان.

واللغة البربرية في تناقص في الجزائر، وكلما خسرت شوطا كان لفائدة العربية لغة وثقافة، فالجالية الطالبية بتونس ومصر قد تزلعت في العربية وآدابها وخرج منها الأساتذة المبرزون.

والجالية الطالبية على وجه العموم سواء بالزيتونة أو بالقرويين أو بالأزهر أو بعامة الجامعات الشرقية قد استرجعت مكانة الجزائر كبلاد منتجة في حقل الضاد والمعاهد العليا والعربية بالجزائر المنسوبة لجمعية العلماء أو لغيرها قد أحييت التعليم الزيتوني بتأسيسها الفروع الكثيرة واضطرت المدارس الحكومية الثلاث إلى تعديل برامجها.

والملاحظ هو أن البربر في الطبيعة من الحركة الجزائرية كيفما اصطبغت وغايتهم عربية إسلامية لا غبار عليها. فلن يجد الوطنيون الجزائريون في يوم غد "مشكلة بربرية" تعثر في طريقهم وتنشر بذور الشقاق بينهم وتبعث بنعرة قد تفلق الحركة وتحد من نشاطها. فالجزائريون قد اجتازوا هذه الأزمة بسلام وبدون كثير خسارة بل بإذكاء لنار العروبة والله الملمهم لسواء السبيل.

5 - المغرب الأقصى:

ثلاث قبائل بربرية تتوزع العمران وتتنازع السلطان بالمغرب الأقصى:

أ- المصامدة:

ومصمودة هي أقدم قبيلة بربرية مستقرة بالمغرب. تشغل الأطلس الكبير والسرس والأطلس المضاد، وهي تؤلف أغلبية السكان إلى اليوم ليس فقط بهذه الجهات الجبلية بل أيضا بالسهول الغربية. أما إخوانهم في الجنس بنو غمارة فهم يسكنون الجبال الشمالية أعني ناحية الريف. والمصامدة جميعا

مستقرون لا رحل يسكنون القرى والمدن وقد اجتازت بهم زحفات بربرية أو غربية أو إفريقية. فكانوا في حركة دائمة لفتح الأندلس أو لفتح من الأندلس. وكانوا محل تأثر بالحضارة الأندلسية بسبب من هاجر إلى جهتهم من بلاد الأندلس الغربية وبمن قامت من الدول ذوات الحضارة الممتازة بجهتهم مثل دولة الصديين بمدينة سبتة.

ب- الصناهجة:

جاءت صناهجة إلى المغرب من شرق شمال إفريقيا حيث استقر البعض بجبال القبائل منذ قديم مثل زاوية وكتامة وصناهجة هم الذين فتحوا الصحراء وتخوم السودان وادخلوها في الإسلام.

ويتألف من صناهجة بالمغرب كتلات كثيفة بالريف على الخصوص وهي هناك قديمة العهد. كما توجد عناصر صناهجية مبعثرة بالسهول وفي حاشية الجبال حيث استقرت منذ القرون الأولى الإسلامية. وصناهجة تشغل الجنوب من الأطلس الأوسط والمنطقة الغربية من الصحراء في الشرق والجنوب من الأطلس. وأغلب قبائل صناهجة من المنتجعين أو من كبار الرحل الصحراويين. غير أنهم يتدافعون رويدا رويدا نحو الشمال ليستقروا هناك.

ت- زناتة:

زناتة هي آخر قبيلة بربرية جاءت ديار المغرب واستقرت بالسهول المغرب منذ القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين بينما كانوا في

القرن الأول ومبادي الثاني مازالوا بطرابلس والجنوب التونسي والنجاد العليا الجزائرية ثم جاءوا المغرب بمفردهم أولاً ثم متزججين في القرن الرابع مع العرب من بني هلال وبني سليم. فصاروا يؤلفون الآن كتلة كثيفة بشمال الأطلس المتوسط والمغرب الشرقي والصحراوي وقد امتزجوا بالعرب في الغالب.

والظاهرة الكبرى في المغرب اليوم هي أن البربر إثر الظهير البربري وإثر محنة السلطان وبفاعل الصحافة والإذاعة والاختلاط والمدرسة وسير التقدم العام قد كسروا إظهارهم القبلي وثاروا على رؤسائهم الجامدين العاملين بإذن المراقب الفرنسي وأرادوا الاندماج "الوطني" في عموم الشعب وتشكلوا تشكلاً جديداً عمالياً ونقابياً ووطنياً سيتولد منه شعب المغرب المتحد في يوم الغد إلا أنهم الآن في أزمة نشأة وطور انتقال ومحاولة إنشاء جديد طبقي ووطني يتصور تصوراً واضحاً في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنقابية.

الممالك البربرية:

ألف البربر بالمغرب قبل مقدم الفينيقيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ممالك صغرى تحت رئاسة ملوك صغار يسمون اجليد يغارون على استقلالهم الفردي في محيطهم الصغير. ثم استولى الفينيقيون على البلاد من القرن الثاني عشر إلى سنة 146 وخلال الحروب البونيقية تألفت من المغرب امبراطورية تسمى موريطانيا تولى الحكم فيها ملوك من البربر أشهرهم بوخورس في القرن الثاني ق.م. الذي ناصر الرومان ضد بوغورطه.

ومنهم اسكاليس ومنهم بوغود. ودخل الرومان المغرب رويداً رويداً وفي سنة 25ق.م. ألحقوه بموريطانيا القيصرية أو الشرقية فجعلوه تابعاً لمملكة يوبا الثاني. ثم تولاه ابنه بطليموس. ولما ثار على الرومان البربري تاكفاريناس والبربري ايدمون ألحقت رومة المغرب. وجعل منه الإمبراطور فلوديوس موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة ولم يتعد الحد الجنوبي لسلطان الرومان مدينة الرباط الآن بستة كيلومترات ثم يمر هذا الحد في الجنوب من مكناس وفاس. واهم المدن بهذا المغرب الذي لم يترامى إلا قليلاً هي وليلي ولوييلس وسلا وبناسا.

الممالك البربرية الإسلامية:

دخل المغرب في الإسلام منذ فتوحات عقبة بن نافع. وسرعان ما تحول ليس فقط إلى ملكة إسلامية بل إلى عسكر إسلامي متقدم مباشر للغزوات. فتولى فتح الأندلس ثم فرنسا.

ومر المغرب الإسلامي البربري بمرحلتين قبل أن يستتم سيادته. المرحلة الأولى دينية سياسية. فقد انتشر مذهب الخوارج بالمغرب واعتنقه عامة البربر فأسسوا دويلات للخوارج في جهات كثيرة. وظهرت في الآن نفسه نزعة تأسيس "إسلامية بربرية".

فقد ظهر في قبيلة برغواطة التي هي من مصمودة والتي هي ضاربة بجهة الشاوية متنبئ يدعى صالح البرغواطي وألف قرآناً بالبربرية دعا إليه الناس فاتبعه من اتبع.

لكن هذه المحاولة "الاستقلالية" حتى في صورة الدين. سرعان ما فشلت وعمت الخوارج وأسسوا دويلات منها دويلة بني مدرار

في سجل ماسية غير أن البربر اجتازوا هذه المرحلة وأسسوا دولة عربية الرأس بربرية الجسم وهي الدولة الأدرسية (788م-924م) وهكذا تم في القرن الثالث الهجري مشروع كبير في كامل شمال إفريقيا نستطيع ان نسميه الاستقلال الداخلي بالإضافة (= بالنسبة) إلى الخلافة العباسية وإن كان يزيد عنه بخطوات جزئية فسيحة وتم هذا الاستقلال بإيجاد دول ثلاث عربية الرأس في معظمها بربرية الجسم ودواليب الحكومة فكان بنو إدريس بفاس وبنو رستم بطاهرت وبنو الأغلب بالقيروان، ونستطيع أن نقول إن دواليب الحكومة الأموية بالأندلس وجانباً كثيراً من السكان هم من البربر إلى حد بعيد، غير أن الخطوات الفسيحة الكبرى الطبيعية لم تخطها هذه الدول وهي "خطوة الوحدة المغربية" أو "الدول المتحدة المغربية" وهي لابد منها لأنها هي الظاهرة السياسية المغربية طال الزمان أم قصر وأحب من أحب وكره من كره.

وبالفعل فقد خطا هذه الخطوة الفاطميون لحسابهم الخاص، فتوحد المغرب لأول مرة وأجز المشروع الذي وقف دونه يوغورطه، بسبب منافسة مزاحمة من بني جلدته.

وكان الدولة الفاطمية تجربة ليس إلا، وفي النية إحالة الانتقال إلى مصر، وانتقل الفاطميون بالفعل إلى مصر وظهر باديس الصنهاجي الذي أسس مدينة الشير على حدود المغرب وبذل قصارى الجهد وهو العامل الكبير لتوحيد المغرب من جديد فتوفق إلى ذلك حيناً من الدهر وأخذ مدينة فاس، وتم له مرغوبه لفترة قليلة من الزمان، ثم مات دون ان يستطيع ترسيخ الوحدة.

وظهرت في المغرب دويلات صغيرة مشاقة، فرجعت صنهاجة على زناتة ودفعت بها إلى المغرب الأقصى، فظهر به منها بنو يفرن ومغراوطة وأسسوا به دويلات بفاس، ثم أسس بنو يفرن دويلة بسلا على نهر أبي رقرق، وأسسست مغراوة دويلات باغمات وتافياللت، وفي الآن نفسه ظهرت قبيلة مكناسة وأسسست مدينة مكناس، وجاء موسى بن أبي العافية المكناسي وأسس دويلة بفاس لحساب الفاطميين، وكأنا هذه الدويلة توطئة وتمخض لتأسيس الامبراطورية الغربية الكبرى فيبينما نرى صنهاجة الشرقية قد تقسمت إلى بني زيدي بالمهدية وبني حماد ببيجاية وبني حماد بالأندلس وقد ضعفت الدولة لهجوم النرمان على السواحل والأعراب الهلاليين والسليميين بالبراري إذ زحفت صنهاجة الجنوبية من السينغال (وادي الذهب) وأسسست دولة المثلثين (1025-1147) التي سادت بالمغرب وفتحت الأندلس من جديد ووحدت الأندلس ومعظم المغرب طيلة قرن، وكان لها مذهبها السياسي الديني المجدد الذي وضعه عبد الله بن ياسين ومذهبها وهو وحدة المغرب ومذهبها الفني المعروف بالفن المرابطي والذي منه آيات في الأندلس وكامل المغرب.

وما عتَم أن جاء المهدي بن ترمزت بالتعاليم الإصلاحية التي أخذها من حجة الإسلام الغزالي، فجدد الإسلام البربري وادخل إصلاحاً دينياً يعتبر أكبر إصلاح على مدى العصور وأسس الدولة الموحدية البربرية التي هي أكبر دولة للبربر وقد شملت الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس، فتمت فكرة توحيد المغرب العربي وتمت للبربر إمبراطوريتهم العربية الإسلامية وتم أكبر

إصلاح ديني إسلامي على يد البربر وظهرت أكبر فنون الإسلام المعروفة بالفن الأندلسي العربي وبالفن الموحن على يد البربر أيضا وعمت المغرب وبحرت

اوروبا وجزءا من امريكا وظهر أكابر فلاسفة الإسلام وشعرائهم وكتابهم في هذا العصر البربري من ابن رشد إلى ابن خلدون.

فبربر المغرب إذا حركوا حركوا للإسلام والعربية ولا سبيل إلى ان تتخذ منهم ذريعة ضد الدين ولغة الضاد. وإن كانوا في جبالهم يتكلمون البربرية الشلحاء إلا أنها في تناقض لفائدة العربية وسوف لا تمر إلا مدة قليلة حتى يخرج منهم في هذا الجيل السياسسيون والشعراء والمفكرون والكتاب العلميون وسوف تطغى الآداب المغربية في سنوات قليلة حتى تغمر سوق الشرق وتوجب إعجاب الشرقيين.

6 - البربر في الأندلس:

علاوة عما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن البربر ينتمون إلى أصل واحد مع الايبيريين سكان اسبانيا الأقدميين. فإن جماعات منهم قد ذهبت إلى اسبانيا -وربما استقرت بها- على عهد فتوحات حنبل القرطاجني هناك. كما أن جماعات أخرى انتقلت إلى هناك مع الجيوش الرومانية.

وفتح طارق بن زياد البربري اسبانيا ومعه جيوش من البربر من قبيلة أوربة على الخصوص. واستقدم منهم خلفاء بني أمية جماعات وفيرة وأنزلوهم جنودا لحاميتهم كما فعل ذلك المظهر

بن أبي عامر لقمع ما شاء على عهده من ثورات.

وعندما انفصل فرع من بني زيري وأسس دولة بني حمود الصنهاجية بالأندلس ثارت الخصومة الأبدية بين صنهاجة وزناتة.

وذكر لنا ابن خلدون أهم القبائل البربرية التي حلت بالأندلس وهي متغرة ومديونة ومكناسة وهوارة. وأضاف إلى ذلك ابن حزم قبائل أخرى منها مغيلة وملزوزة وفزة وأوربة ومصمودة وكتامة وجد بربرا من بني رزين في قلعة بني رزين. ومن لحاسة في بلدة رندة. وبني غزلون في شاطبة. وبني طريف في مدينة سالم. ومعظم من جاء الأندلس من البربر ينسب إلى زناتة منهم بنو الخروبي وبنو الليث وبنو يفرن وبنو برزال وبنو دمر وبنو خزر. وسبب مجيء الزناتيين يرجع إلى السياسة التي سلكها عبد الرحمان الناصر الأموي من استمالة زناتة المغاربة تمهيدا لفتح بلاد المغرب ابتداء من الأندلس وافتكاكها من الفاطميين. ولما زالت دولة بني أمية محل محلها ملوك الطوائف كان البعض منها من البربر الصرف مثل دولة بني حمود ودولة بني برزال وغيرهما. ثم استولى على الأندلس المرابطون ثم الموحدون. وتركوا هناك أقواما كثيرين من البربر. فلما هاجر المسلمون سنة 1107 هـ خرج العرب والبربر معا. ومن البربر من أم تونس بنفس الاسم مثل قبيلة عوسجة التي بنت مدينة عوسجة وقبيلة ماتلين التي بنت الماتلين وهلم جرا.

وبقي كثير من البربر بالأندلس تنصروا وتاسبنو تدل على

ذلك الكثير من المدن والقرى والجهات الاسبانية البرتغالية، ومن البربر من هاجر إلى اميركا مع الاسبانيين فالتقى بأجداده الأولين المستقرين هناك منذ عصور قديمة، وبقيت بعض مفردات بربرية في اللغة الاسبانية واللغة البرتغالية تتعلق بأسماء النباتات على الأكثر. وبالجملة فقد لعب البربر دورا رئيسيا في تاريخ اسبانيا والبرتغال طيلة عشرة قرون سواء في رئاسة الدول أو رئاسة الحكومات أو السياسة العامة أو ميدان العلم والأدب والفنون. ناهيك بفن المرابطين وفن الموحيدين والفن الموحن الذي عم الأندلس وأوروبا الغربية.

7 - البربر في فرنسا وانكلترا:

لقد رفع حنبل القائد البونيفي الكبير جحافل من البربر اخترق بهم اسبانيا (أيبيريا) وفرنسا (غاليا) وزحف بهم على إيطاليا من الشمال، فبقيت منهم جماعة بجنوب فرنسا، وفتح يوليوس قيصر غاليا في جيوش من أجناس مختلفة، فبقيت منهم جماعة بالحلمية الوسطى، وزحف عبد الرحمان الغافقي على فرنسا بجيوش عربية وبربرية، فبقي كثير من البربر بين نهر الغارون ونهر لوار وهم هؤلاء الشقر الموجودون بجبال فرنسا، وغزا الأغالبه والفاطميون وادي الرون من الفريجوس إلى سان غوطاء ومعهم البربر فبقيت منهم هنالك جماعة، وهاجر بعض الأندلسيين وفيهم البربر إثر إجلائهم من اسبانيا على عهد فرنسيس الأول، فبقيت جماعة أخرى من البربر هناك إلا أنهم اندمجوا بالسكان ولم يعد تعرفهم ميسورا إلا بأسماء المدن البربرية وبالسحنة البربرية الممتازة، وهذا موضوع جدير بالبحث.

وانتقلت سفن البربر منذ قديم إلى انكلترا فاستبقت هنالك جماعات من البربر نتعرف منهم القيطوليين أو القويطس وهم الجيتوليون المعروفون عند العرب ببني جواله.

أما بربر إيطاليا وصقلية ومالطة وقوصرة وسرديانيا فأمرهم معروف لا يحتاج للذكر.

8 - البربر في بلاد السودان:

رأينا ان البربر والسودانيين من جنس واحد، وعلاوة عن ذلك فإن البربر الأصليين منتشرون أصالة في بلاد السودان، وخصوصا منذ العهد الفينيقي لأنهم كانوا يشتغلون رؤساء قوافل تجارية جلب خيرات السودان والعبيد، ومنذ الفتح الإسلامي الأول أسلمت قبيلة صنهاجة بفرعها الشرقي والغربي وتدافعت في موجات متعاقبة واعتنت بإدخال معظم أهله في دين الإسلام، ومازالت مرابطة هناك هي وغيرها من القبائل في بلاد موريطانيا السننيغالية وعلى ضفاف نهر السينغال وبحيرة تشاد، ومن العسير أحيانا في بعض الجهات التمييز بين البربر والسوداني، ولهؤلاء البربر اتصالات متينة مع الطوارق والتبو في جهة الشرق، ومع بربر جنوب المغرب الأقصى غربا، ومن قبائل صنهاجة المغربية خرج محمد بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، وباعتبار وجود البربر في تلك الجهات فيجب اعتبار هذه الناحية من السودان جزء لا يتجزأ من المغرب وبالتالي من الوحدة المغربية التي تشمل الريف ومراكش والجزائر وتونس وليبيا وهاتيك الجهات.

9 - البربر في جزر الكناري:

هي جملة جزر واقعة في المحيط الأطلسي على مسافة قليلة من الساحل الغربي الإفريقي يسكنها نحو 700.000 ساكن. وسكانها الأقدمون هم الغوانتشيوس الذين أصلهم بربري، وانضاف إليها في العصر العربي بربر من بني غمارة (أحدى الجزائر تسمى غمارة) وبربر من هواره (مدينة بالماليوم تسمى في القديم بني هواره) وقد استعمرها عرب الأندلس وسموها الخالدات ثم انتزعها النرمان فالهولانديون فالاسبانيون بحيث أن السكان خليط ولكن معظمهم من البربر القدماء والحديثين ويتكلم الغوانتشيوس لغة منحرفة عن البربر مع اختلاف يسير بين جزيرة وأخرى - وبقيت منها إلى الآن نقوش صخرية بالحرف اللوبي القديم واللغة اللوبية إلا أن العلماء لم يفسروا هذه المنقوشات ولا اعتنوا بدراستها ولا قابلوا بينها وبين النقوشات الموجودة بشمال إفريقيا وأميركا حتى تتبين الفروق والمواقفات. وهذا ميدان للبحث فسيح طريف لمن عسى أن يعنى غدا بالمغرب من علماء البربرية والباحثين في حضارات البربر.

10 - البربر في أميركا:

لاشك أن البربر ذهبوا إلى أميركا حينما ذهب إليها أجدادنا القرطاجنيون في بعض الأقوال الراجحة، ولاشك أنهم ذهبوا مع جماعة المغامرين من مسلمي البرتغال الذين كانوا يترددون إليها حسبما شهد به الجغرافيون العرب. ولاشك أنهم ذهبوا إليها مع كريستوفر كولبوس حينما ساق رواد العرب سفنه إليها.

وليس هذا مانعني، وإنما نعني أن البربر ذهبوا إلى أميركا قبائل في عصور سابقة لظهور الفينيقيين أنفسهم أي سابقة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد، فإن التيارات البحرية بين العرب وأميركا كانت تدفع سفن البربر إلى ساحل أميركا وتوجد بأميركا قبائل كاملة تحمل أسماء بربرية فتوجد قبيلة مطماطس وتوجد هنا قبيلة مطامطة؛ وتوجد قبيلة مابة وتوجد هنا قبيلة لمائة كما أن عادات هنود أميركا تشابه عادات البربر، وقد أُلّف في هذا الموضوع المؤلفون وخاصة الكومندان كوفيه صاحب كتاب البربر في أميركا، فليراجع.

ترى من هذا نطاق انتشار البربر ومبلغ مشاركتهم بتوفيق في كل حضارة قديمة وحديثة، فهم من صفوات الشعوب وخيرة الأمم وهم حريون بأن يؤسسوا مجموعة متحدة من الدول التي لهم فيها أغلبية لحتها العروبة ودينها الإسلام ولغتها العربية وحضارتها صفوة الحضارات.

الفصل الخامس

الآداب البربرية

أ- اللغة البربرية:

1 - نطاق البربرية:

اللغة البربرية من أوسع اللغات نطاقا من حيث انتشارها. يتكلم بها اليوم من أهل مراكش خمسة ملايين، ومن أهل تونس مائة ألف، ومن أهل الجزائر أربعة ملايين، ومن أهل مصر بضعة عشرات من الآلاف. وميدانها يبتدئ من المحيط الأطلسي وينتهي إلى البحر المتوسط، ومن مضيق جبل طارق إلى إفريقيا السوداء. ويضاف إلى ذلك سكان جزر الكناري الذين يتكلمون لهجة بربرية خاصة بهم.

ولقد نطق هذه اللغة البربر اللوبيون المعاصرون للفرعنة منذ 35 قرنا، وتحدث بها أهل برقة القدماء الذين عرفهم اليونان بقريني، وهي لغة الجيتوليين والنوميديين والدوريطانيين الذين امتزجوا بالقرطاجنيين من القرن التاسع إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وقد اصطدم بهم الرومان أكثر من اصطدامهم بالقرطاجنيين أنفسهم وفرض هؤلاء الرومان لغتهم اللاتينية

على البربر بواسطة المدرسة والإدارة والكنيسة ودام سلطان الرومان ثمانية قرون، فلما اضمحل كانت البربرية قائمة، وعرف الرومان هذه اللغة البربرية، وميزوا بينها وبين البونيقية، بل عرفوا أنها تنقسم منذ ذلك العهد إلى عدة لهجات وحدثونا عما كانوا يلاقونه من مصاعب شائكة في تعلمها ونفورهم من تعاطي دراستها. فقال الكاتب الروماني فلينوس القديم متحدثا عن البربر: "يتعذر على حناجر غير حناجر البربر أن تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم".

ولما فتح العرب المغرب سنة 27 هـ وجدوا هذه اللغة البربرية منتشرة في الصحاري والجبال والجزر وفي المدن والقرى تزامها في الساحل الشرقي اللغة البونيقية أي اللغة الفينيقية المتأثرة باللهجات والنطوق البربرية.

وبقيت هذه اللغة بعد الإسلام، وبعد إسلام البربر الذي حسن منذ القرن الأول، وعدلت في الغالب عن الخط اللوبي القديم وكتبت بالحرف العربي، كتبت به تصانيفها الدينية الإسلامية، وشعرها وحكاياتها ونوادرها ودرس المسلمون هذه اللغة العجيبة و صنفوا كتبها في المقارنة بينها وبين العربية والعبرانية، وألفوا معاجم لها وللعربية معا، واعتنى أصحاب المعاجم النباتية من الغافقي إلى ابن الجزار إلى ابن البيطار بإيراد التسميات البربرية للنباتات التي يصفونها، وبقيت هذه اللغة لغة البلاط في الأسر المالكة البربرية من صنهاجين وحفصيين وحماديين وزنانيين ومرابطين وموحدين، بل كان غيرهم من ملوك المغرب يعرفها، فإن المعز لدين الله الفاطمي كان يتكلم بها

مع زعماء صنهاجة وكتامة واستعملها عبد الله الشيعي في دعوته للفاطميين بجبال القبائل وزواوة. كما استعملها المهدي بن تومرت في دعوته بين العروش والعشائر البربرية وبنى بعض الملوك الحفصيين جامعا ولم يكتب عليه اسمه، فقبل له في ذلك. فأجاب بالبربرية "يسنت ربي" أي قد علم الله ذلك، ودخلت مفردات بربرية في اللهجات العربية بالمغرب والأندلس وصقلية منها "الكرومة" و"الفكرون" وغيرها. وهي لغة اصطلاحية في بعض الحرف مثل لغة عمال الحمامات أو لغة خضاري الزناتيين وهي من أول اللغات التي كان يسميها الطفل الصغير عند الأسر الكريمة بتونس فإن "داداه" بربرية من قبيلة "الدويرات" غالبا فنحدثه بالبربرية فننشأ عليها. هي لغة السرف في بعض العائلات الناطقة بالصاد. ومن منا لم يسمع إخواننا المغاربة أو الوارقليين أو الميزابيين أو الزواويين أو الدويرات يتحدثون بلهجتهم البربرية الخاصة بهم.

ولما غزا الفرنسيون إفريقيا الشمالية حاولوا أن يتخذوا من هذه اللغة نحوا وأدبا لمنافسة العربية فألفوا كتب النحو في مختلف اللهجات و صنفوا المعاجم البربرية الفرنسية ووضعوا مجاميع النوادر والقصص. ونقلوا الحرف العربي الذي كان وما زال يكتب به البربر إلى الحرف اللاتيني كل ذلك ليهربوا بالبربر عن العرب.

غير أن النزعة العامة هي تناقص البربرية في كل ميدان فهي تتحول في كثير من الجهات من لغة مفردة إلى لغة مشاركة مع العربية. ومن لغة عامة إلى لغة خاصة بالمهنة أو

العائلة. ومن لغة عائلية إلى لغة نساء أو لغة سر وتناقصها يشمل في الآن الواحد ميدان الانتشار النسقي ووضع الشخص الناطق. فما بالعهد من قدم وفي عصور تاريخية قريبة منا كان أهل حمير يتكلمون البربرية. فعدلوا عنها إلى العربية ولم يبق في لسانهم من مفرداتها التي انفردوا بها الا كلمة "مش" بمعنى القط.

ولم يعد أهل السند بجهة قفصة يتكلمون البربرية إلا بعض الشيوخ منهم أو النساء العجائز.

وسبب تناقص البربرية هو انتشار التعليم ولو بشكله المنقوص. وتوفر طرق المواصلات التي لم تبق اية جهة معزولة عن بقية الجهات. وتنوع مطالب المعاش ومعارف الحياة التي احتاجت إلى مصطلح لغوي لا تتسع له البربرية. وانبثاث الإذاعة العربية التي غزت المنازل والمحيط النسائي وتسلطت على المواضيع والألسنة وتشنت القبائل البربرية التي خطم إطارها واندمجت أو على الأقل اختلطت بالقبائل العربية. وذلك منذ العهد الأغلب وخصوصا منذ زحفة الأعراب الهلاليين الذين كسروا بتونس -على الأقل - الرابطة البربرية واندسوا في الجزائر والمغرب بين الطبقات البربرية ففككوا أوصالها. ولا ينبغي إن ننسى الدور الذي قامت به الطرق -وبقطع النظر عن كل اعتبار آخر- في تعريب البربر وتمكنهم في الإسلام ثم إن نزعة الانتساب إلى الشرف المنبثة في كثير من الأسر الكبيرة البربرية حملهم طبعا على اطراح لهجاتهم البربرية جيلا بعد جيل.

وبعد فما هو أصل هذه اللغة البربرية التي بلغت من العمر 35 قرناً وعاشرت جميع دول المغرب وقد استعرضنا مراحل تاريخها؟

2 - أصل اللغة البربرية:

اللغات عائلات ثلاث:

السامية والحامية والهندية الأوروبية. فالسامية هي البونيقية والعبرانية والسريانية والعربية، والحامية هي المصرية القديمة والقبطية والسودانية، والهندية الأوروبية هي اليونانية واللاتينية ولغات أوروبا الحديثة.

ومع أن البربر عاشروا البونيقين والرومان واليونان والعرب وتعلموا لغاتهم وكتبوا فيها وصاروا أحياناً من أقطابها، وقد دخلت مفردات كثيرة من تلك اللغات في اللسان البربري فليست البربرية منتسبة إلى أية لغة من تلك اللغات بشكلها الحاضر.

والحقيقة هي أن للبربر لغة سامية أولى Proto-Semitic في عهد قديم جداً تولدت منه فيما بعد اللغات السامية واللغات الحامية، أو أن البربرية - باصطلاح آخر يرجع إلى الاصطلاح الأول - هي لغة سامية حامية، ولهذا نجد لها قرابة متينة بالمصرية الفرعونية والقبطية من ناحية، وباللغات الحبشية والسودانية من ناحية أخرى، فقرابتها باليمينية القديمة ليست مستبعدة بهذا الاعتبار، وقرابتها من العربية في أصل المنشأ صار أمراً محققاً.

والمفروض منه على كل حال هو أن البربرية لغة سامية حامية

أي لغة سامية أولى.

وأول من اكتشف هذا هو دوناش بن قرش القيرواني في القرن الثالث للهجرة ورجع إليه علماء هذا العصر بعد طول تيه وكثرة تطواف.

وبعد هذا التحقيق فلا بأس من استعراض بعض النظريات في الموضوع:

أ- البربرية والباشفانسية:

الباشفانس (باسك) شعب قليل العدد من متبقيات السلط يسكن الشمال الغربي من إسبانيا والجنوب الغربي من فرنسا. وقد اتصل به العرب والبربر خلال فتوحاتهم بفرنسا والأندلس وهناك النظرية الضعيفة المردودة القائلة إن البربر والباشفانس كلاهما من السلط قدماء سكان أوروبا وأجداد الغاليين سكان فرنسا القدماء، والايبيريين سكان إسبانيا القدماء، فذهب بعض العلماء يبحثون عن وحدة الأصل بين البربرية والباشفانسية وأشهرهم شارانسي الفرنسي، وقابلانتز وشوخارت الألمان، والنتائج التي وصلوا إليها هزيلة جداً.

ب- البربرية واليونانية القديمة:

المسماة لغة تركية وبيلاج ذهب الفرنسي بلكون إلى أن البربرية أخت لليونانية القديمة، وإذا كنا نجد مفردات كثيرة من أصل يوناني في اللغة البربرية فما ذلك إلا من تأثر البربر بالحضارة اليونانية منذ عصر البونيقين وبخاصة في عهد الاستقلال البربري وولوع الملك يوبا الثاني بالأدب والفنون اليونانية ولا

ينبغي أن ننسى أن البيزنطيين - وهم يونان - سادوا بلاد البربر طيلة قرن قبل الفتح العربي - فليس ما قاله برلكون بحجة على وجه الإطلاق.

ت- البربرية السودانية:

بحث بعض العلماء عن الصلات بين البربرية والسودانية وخصوصا لغة الحواسة، ومن المعلوم أن الحواسة والمصرية القديمة لهما صلات متينة فنرجع بذلك إلى قضيتنا الأولى وهي اللمحة الموجودة بين المصرية القديمة من ناحية والحواسة من ناحية أخرى والبربرية من ناحية ثالثة.

ث- البربرية والمصرية القديمة:

هذه هي نظرية الفرنسي دوشمونتاكس وهي وجيهة وقد صارت الآن الراجحة، ويوجد إلى جانب هذه النظريات نظريات أخرى أكثر افتراضا منها.

ج- البربرية والايترورية:

(اترسك) وهي لغة إيطاليا قديمة قبل الرومان. وقد ذهب إليها برينتون ولكنها بعيدة الاحتمال.

ح- البربرية والطورانية:

اي اللغة التركية القديمة وقد ذهب إليها الفرنسي رين، وهي بعيدة الاحتمال جدا.

و - البربرية والكندية:

أي لغة شمال أميركا قبل اكتشاف كولومبوس، وهي لغة

قبائل الهورون والعلويوت أي القبائل الهندانية أو الهنود الحمر. وهذا له وجه إذا صحت النظرية التي تقول إن البربر اكتشفوا أميركا في عصور متقدمة.

ومهما يكن فإن النظرية الراجحة هي أن البربرية لغة سامية أولى أو سامية حامية وكلاهما بمعنى واحد، ولا يحل الشكل بصفة نهائية إلا إذا درست اليمينية القديمة وقبض الله من علماء المسلمين من يتخصص في اليمينية القديمة والمصرية القديمة والبربرية في الآن الواحد.

الخط البربري :

اقتبس البربر منذ قديم خطا بحروف صائتة منفصلة وضعوا بعضه من تلقاء أنفسهم واستنبطوا بعضه الآخر من الحرف الحميري ومن الخط المصري القديم. ويعرف هذا الخط بالخط اللوبي، وهو يوجد منقوشا على الصخور بالجهات الصحراوية وعلى مشاهد القبور في غرب تونس وشرق قسنطينة وبجزائر الكناري، ومازال يكتب به الطوارق الملتزمون ويسمونه تافيناغ، ويظهر لنا أنه تعطل منذ القرن الثاني للهجرة عطله الخواج وقلبوه إلى الخط العربي مع استنباط حروف زائدة في لغة البربر، ووضع الفرنسيون للخط البربري حرفا لاتينيا فلم يفلحوا.

اللهجات البربرية:

تنقسم البربرية إلى لغة قديمة وهي اللوبية ولا توجد بها إلا المنقوشات الصخرية، وإلى البربرية الوسطى وهي من القرن الثالث الهجري إلى السابع ويوجد بها كتاب المدونة في الفقه

الاباضي لابن غانم ويوجد بها قاموس بربري عربي بجزيرة جربة، والبربرية الحديثة وهي نحو الثلاثين لهجة بين شمالية وجنوبية يوجد منها بمصر لهجة واحدة، هي سيوة المعروفة بواحة عمون وهذه اللهجات منتشرة بليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وجزر الكناري.

هذه اللهجات تحتاج إلى دراسات يتولاها أبناء البلاد بنزاهة وأسلوب علمي بحت. وهذا حقل من حقول العمل في عهد الاستقلال إن شاء الله تعالى. حتى تثرى العربية وتصير مرجعا عالميا لهذه البحوث وتبين ملامح الانتاج البربري بصورة جلية.

ب- الأدب البربري:

1 - خصائصه:

الأدب البربري هو مجموع ما صنف في البربرية كتابة من تصانيف دينية أو مجاميع قانونية أو أشعار أو قصص. أو ما تناقله الناس مشافهة من أشعار ونوادير وأمثال وحكم فالأدب البربري كتابي وشفاهي وهذان النوعان ينقسمان بدورهما إلى أدب جاهلي أو سابق للإسلام، وأدب إسلامي.

أ- الأدب الجاهلي:

والمقصود به الأدب الذي ازدهر في العصر البربري الأول. ثم البونيفي. ثم عصر الاستقلال البربري. ثم العصر الروماني فالواندالي فالبيزنطي.

والبارزان من هذه العصور هما: العصر البربري الأول السابق

للاحتلال الفينيقي أي الممتد من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن الثاني عشر ق.م. يوم حل الفينيقيون بسواحل أفريقيا الشمالية، والحقيقة هي أن هذا الأدب مفترض الوجود فلم يبلغنا منه في الواقع أي أثر إذا استثنينا النقوش الصخرية التي هي في الغالب صور لا توجد بها كتابة إلا في قلة. حتى إذا وجدت فحروف ليس إلا ولا مزيد.

ثم عصر الاستقلال البربري: في القرن الثاني قبل الميلاد يوم تطاحن القرطاجنيون والرومان في الحروب البونيقية الثلاث فاغتتم البربر هذه الفرصة لإعلان إمبراطورياتهم وإنشاء مؤسساتهم القومية ومن ضمنها الأدب الوطني غير أن الملاحظ هو أن هذا الأدب الوطني لا بد أن يكون قد كتب في بعضه على الأقل باللغة الأدبية القديمة. لكن ما وصلنا منه مكتوب باليونانية عند البعض مثل الملك البربري العالم والفنان يوبا الثاني. أو مكتوب بالبونيقية عند البعض الآخر. مثل تصانيف الملك البربري هيامبسال. ولم تبلغنا منه إلا منقوشات أضرحة لا تفيد كثيرا.

ب- الادب الإسلامي:

هو أدب البربر الكتابي والشفاهي الذي ابتدع في العصور الإسلامية من القرن الأول للهجرة إلى الآن أي انتاج 14 قرنا وهذا الأدب ينقسم إلى أدب البربر الذي ألفوه بالعربية في مواضيع إسلامية أو عربية عامة. وتصانيف عبد الله بن أبي زيد النفري أو ابن غرفة الوردغمي أو الونشريسسي. أو شعرتيم بن العز

الصنهاجي وابي زكرياء الحفصي. فهذا كثير لا يتسع له نطاق بحثنا.

ثم أدب البربر الذين ألفوا بالبربرية، أو بالعربية لكن في مواضيع خاصة بالبربر كالتواريخ والأنساب البربرية أو الفقه الاباضي البربري، أو الشعر أو القصص وال نوادر المستفاة من صميم الحياة البربرية.

أ- الفقه:

الفقه الإسلامي مجموعة العبادات والمعاملات المستخرجة أصولها من القرآن والحديث والقياس والإجماع وهو إما فقه بحت، أو نوازل أي قضايا قديمة قياسية اتباعية صادرة في صور شاذة ونادرة وعجمية فتقاس عليها القضايا الجديدة مثلانها أو المشبهة بمثلانها، وهذا يسمى بالفرنسية Jurisprudence أو عُرف ويسمى أيضا العمل ويسمى عند البربر أما مالكي ومؤلفوه داخلون ضمن عموم المؤلفين المغاربة أو الأندلسيين أو الصقليين. فلا نفردهم بالدراسة ويشذ عنهم بربر المغرب أو "القبائل" بالجزائر الذين هم مالكية أصالة إلا أنهم يطبقون في معاملاتهم الخاصة بهم "قوانين الجماعات" أي "عمل أهل الجبل" أو العرف البربري.

وأما ان الفقه البربري اباضي، والاباضية لا يوجدون في مراكش، وهم في الجزائر أهل شبكة ميزات على الخصوص وفي تونس الوهبيون من جزيرة جربة، وفي ليبيا جبل نفوسه وأهل مدينة زوارة.

وحديثنا في هذه الدراسة هو عن أدب القوانين عند البربر المالكية أو عن أدب الفقه الاباضي، وبصفة عامة عما ألف البربر من كتب دينية ابتداء من دخولهم الإسلام فنقول:

أولا: البربر والقرآن:

دخل القرآن الكرم مع الإسلام بلاد البربر يوم فتح العرب المغرب، فدهش البربر من بلاغة الكتاب المقدس، وسحرتهم أحكامه وفتنتهم مبادئه الأخلاقية السامية والتعاملية العادلة وبهرتهم تعاليمه الخنيفية وانتشر القرآن بينهم منذ النصف الأول من القرن الأول بواسطة "الكتاب" تلك المؤسسة البسيطة العظيمة التي هي معهد نشر الإسلام ورواج العربية، وعلى رأس القرن أرسل عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي عشرة من الفقهاء بتخريج أهل افريقية والمغرب في اللغة والدين وتكون منذ ذلك العهد "المؤدب البربري" الذي حل محله "الكوهن البونيفي" و"الماجستير الروماني" واستقر بالجبل أو الصحراء، في الضيعة أو القرية أو المدينة يعلم أبناء البربر اللغة والأخلاق والدين بواسطة القرآن وسرعان ما صار أبناء البربر يذهبون إلى مصر والمدينة والكوفة لفهم معاني القرآن ورواية الحديث كما كان أجدادهم يذهبون إلى جامعة قرطاجنة أو جامعة دومية أو جامعة أثينا أو الإسكندرية للتضلع في آداب الرومان واليونان، وهكذا صار القرآن كتاب البربر ووقف البربر من هذا الكتاب مواقف ثلاثة:

الموقف الأول: وقفه معظم البربر، فحافظوا على القرآن

بالعربية وفسروه فيما بينهم بالبربرية أولاً ثم بالعربية بعد ذلك.

الموقف الثاني: وقفه بعض البربر، فنقلوا القرآن إلى اللغة البربرية، مثلما نقله الفرس إلى الفارسية والترک إلى التركي. وتقول بعض المصادر أن المهدي بن تومرت زعيم الموحدين والمصلح الإسلامي الأكبر الذي اخذ تعاليمه عن حجة الإسلام الغزالي. قد نقل القرآن إلى البربرية ليفهمه عنه جماعته من البربر المصامدة، ولعل الناقلين لهذه الرواية هم خصوم المهدي وقصدهم من ذلك توريطه والخط من قدره في نظر المسلمين ولعله - وهذا الأرجح - قد نقل القرآن لمصودة مشافهة وفسره لهم بالبربرية ليفهموه ويتبعوه.

ويقال أن طالبين من طلبة البربر قد نقلوا القرآن في القرن الماضي إلى البربرية فقتلا من أجل ذلك، ومهما يكن فإن قضية نقل القرآن إلى البربرية قضية غامضة لم يرسل عليها بعد ما يوضحها من أنوار البحوث، ولعلها دسيسة من المتبريرين الفرنسيين ومستقبل البحث كشاف.

الموقف الثالث: وهذا موقف فردي وهو موقف بعض المتنبيين من البربر أو المتنصبين لخلق وطنية بربرية ضيقة وإيجاد إسلام بربري بحت، ففي سنة 127 هجرية ظهر متنبي في قبيلة برغواطة البربرية الضاربة بالمغرب على سواحل المحيط الأطلسي بجهة مدينة سلا، فادعى هذا المتنبي المسمى صالح بن طريف البرغراطي أنه جاء بإسلام جديد خاص بالبربر وصنف قرآناً

باللغة البربرية نقل أبو عبيد البكري بعض فصوله الثمانين وقد بقي هذا القرآن سرياً، ثم جهر به وانتشر بين بعض أهل تلمسان طيلة قرون حتى قضى عليه الموحدون في القرن السادس.

وفي سنة 313 هجرية ظهر متنبي آخر في قبيلة بني غمارة بالريف يدعى حميماً وألف هو الآخر قرآناً بالبربرية دعا إليه قريته، ولكن لم تدم فتنة حميم إلا قليلاً حتى قضى عليه قضاء مبرماً.

وكون محاولة تأليف قرآن بربري لم تتجاوز شخصين وكونها قتلت في البيضة كما يقولون فإن دلت على شيء فإنما تدل على تمسك البربر بالكتاب الكريم واغلب حملته ومروجيه من سكان شمال إفريقيا منهم، بل قد ظهر منهم بعض المفسرين الكبار مثل ابن عرفة الورغمي وعبد الرحمان الثعالبي وغيرهما كثيرون.

النثر البربري:

النثر البربري عامة إذا استثنينا كتب الفقه البربرية مثل المدونة لابن غانم وبحر الدموع، أو المفسرة بالبربرية - وهي كثيرة - لا يتألف إلا من مجموعات شفاهية لم تدون بالكتابة إلا في عصور أخيرة ولغايات سياسية أكثر منها علمية، وهذا الأدب الشفاهي يتكون في الغالب من قصص وخرافات تنقسم إلى:

1 - حكايات العجائب والغرائب:

وهي اما ذات صبغة سحرية أو ذات أصل أدبي ولها أشخاصها المشهورون بها وأصولها فينيقية ورومانية وفي الأغلب الغالب

عربية، ومردّها في الأكثر إلى ألف ليلة وليلة مع زيادات بربرية ولا بد أن يكون هنالك أصل بربري ملحمة أو غير ملحمة قد ضاع خلال العصور واندمج في العناصر الأخرى.

2 - النوادر:

وهي مقطعات مضحكة للفكاهة أو للعظة أو للتربية الأخلاقية والاجتماعية، بطل هذه النوادر هو جحا قطعاً ونوادير جحا المألوفة من إيران والهند دخلت البلاد في القرن الرابع على عهد الفاطميين وانتشرت عند جميع أمم البحر المتوسط، فهنالك جحا البربري كما هنالك جحا المالطي أو الإيطالي أو البلغاري، وأول ذكر لجحا قد ورد في الفهرست لابن النديم، لكننا نجد نوادر جحا حتى في الحيوان للجاحظ مما يدل على أن هنالك أصلاً اشوريا (= عاشوريا) قدما نقله الملاحون البونيقيون إلى بلاد المغرب فانظم إلى مترجمات جحا عن الإيرانية والهندية ما ذكر ابن النديم.

3 - قصص على أسنة الحيوانات:

وهذا كثير في الآداب الشعبية فلا حاجة للتبسط فيه فعلاوة عن القصصية الحيوانية البربرية القديمة التي أوردها الكاتب البربري أبوليوس (في العهد الروماني) وأخذها عنه لافونتين الفرنسي، توجد مقتبسات من كليلة ودمنة ومن لقمان وغير ذلك.

4 - القصص التاريخية:

توجد عند البربر قصص تاريخية وملاحم حماسية منها

التاريخي بالمعنى الخاص ومنها الديني المشوب بالتاريخ كقصّة المهدي ومنها مناقب الأولياء التي هي بين الترجمة والكرامة والنوع الاغرابي، هذه كنوز ثرية عجيبة فلماذا لم يخرج منها البربر ملحمة كبرى مثل الصاغا عند الايسلانديين أو الالياذة عند اليونان أو "الأنبيذة" عند الرومان أو العنترية عند العرب؟ هذا هو محك السؤال.

الشعر البربري:

يوجد الشعر عند ثلاث فرق من البربر وهم الطوارق المثلثون والقبائل وبربر المغرب الأقصى، والشعر اما تعبدي وإما أناشيد ايقاعية للمساعدة على العمل، وتعقد عند المغاربة مجالس شعر مع أناشيد وتلاحين، وأشهر شعراء المغرب هم اليزلان بالأطلس الأوسط، والشعر عند القبائل كان حماسياً بمجد مغامرات القبيلة أو القرية ويروي بطولة أبطالها، وعند الاحتلال الفرنسي صار بمجد الأبطال الذين استشهدوا في الجهاد ثم صار بعد الاحتلال محتشماً لا يزيد عن غراميات شخصية ليست بذات شأن كبير.

والأدب البربري صالح لتكوين مسرحيات ذات صبغة شعبية صميمة ونزعة تاريخية واضحة، وهو صالح لتكوين أدب أطفال وطني لا نحتاج فيه إلى النقل عن الأجانب وهو صالح لتغذية الأدب بعناصر جديدة طريفة وأحاديث ممتعة وأشعار مستمدة، فمتى يا ترى يخرج من البربر باحثون وناقلون يجعلون الأدب البربري المترجم والمقتبس والمهذب والمجدد عنصراً حياً من عناصر

الأدب العربي، ومنتى نترجم جميع ما كتب الفرنسيون في الموضوع حتى لا نبقى مستعمرين ثقافيا على وجه الدهر.

الفصل السادس

الفن البربري

عموميات:

الفن البربري أصيل مبتكر، وكان يبقى أصيلا مبتكرا لو أنه لم يتأثر - من حسن الحظ أو من سوء الحظ - بفنون الأمم المختلفة ذوات الحضارات الراقية التي تعاقبت على البلاد، إلا أن نبوغ البربري منحصر في كونه يستطيع أن يقتبس صفوة الحضارات وأن يستسيغها وأن يضمها إلى بعضها في باقة حضرية ممتازة يفرغها في قالب خاص به ويموهها بمسحة وطنية بحتة تذهب عنها أثر العجمة وأن يطبعها بميسمه الخاص فنزول عنها كل متبقيات الصبغة الأجنبية.

والفن البربري ثلاثة أقسام:

1 - الفن المعماري، 2- الفنون المستظرفة، 3- الفن الأدبي.

1 - الفن المعماري:

الفن المعماري البربري في أصله يتلخص في القلعة والمدفن الهرمي، فالقلعة هي قضية المدينة أو القرية ومقر

حكومتها ومجمع معابدها ومدخر اقواتها ومحفل اجتماعاتها ومفاوضاتها. فهي في الآن الواحد حصن وقصر حكومة ومعبد ومختزن وساحة شعبية. ومهما تطور تاريخ البربر وجدنا القلعة في المقدمة اصيلة ومتطورة في الآن الواحد. فهي "البورسة" عند البونيقيين و"الكاستروم" عند الرومان و"الرباط" عند الأغالية، و"القصر" عند الفاطميين. و"القصبة" عند الموحدين أي بناء هرمي مقطوع تولدت منه "صومعة" القيروان و"صومعة" صفاقس فكلتاهما في الحقيقة حصن مصغر مشتمل على كامل خصائصه وما الأذان إلا جزء منه حتى إذا جاء الموحدون وابتدعوا الفن المعماري الموحد تمتعت خطوط الصومعة بمزيد الحرية والاستقلال والرشاقة والانبراء فصارت مكعبا مستطيلا وتحررت من قيود الشكل الهرمي المقطوع.

والمدفن الهرمي بربري أصيل تولد منه الهرم المصري وانتشر انتشارا كبيرا في عهد الاستقلال البربري من عصر غولاء وماسينيسا فما بعد. وجده في قبر كليب بمسيوح وفي منضدة يوغرطة بقلعة الضم وفي قبر الرومية فسسنطينة إلى غير ذلك.

وبقي الفن المعماري البربري منحصرا في قيود رومانية في عصر الاحتلال الروماني. إلا أنه أخذ حريته منذ عصر الولاة فبنى صومعة القيروان ثم صومعة صفاقس وتم استقلاله في عصر صنهاجة فكون التاج الصنهاجي المكمل للعموم وابتدع الزليج الفسيفسائي أي الجامع بين صيغة الزليج الذي هو خرف مطلي وصيغة الفسيفساء التي هي ترصيع لأشكال معينة من حجم

وسفط وطوير ليل والوان معينة تؤلف في تراكيب لأحد لها. وابتكرت صنهاجة فرش الأرضية بالزجاج الختم بالفضة والذهب. وفي العصر الحفصي جاء قاسم الزليجي الصنهاجي وابتكر الزليج المزخرف على البارز بأنواع الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية والخطية المدهشة.

ثم إن الفن البربري تطور في العهود الإسلامية فأعطانا الفن الصنهاجي الصحراوي الذي جده بجوامع البلاد السوداء. وأعطانا الفن المرابطي ثم الفن الموحد بالمغرب والأندلس وسرعان ما استقل عن الفن المشرقي في أجزاءه من نوع القوس المهموزة والمنفوخة المشرفة وقوس الجب، ومن نوع العمود والتاج والقبه والصومعة، ومن نوع كساء الزليج والنقش العربي والخط الكوفي والنسخيين المغربيين ومن نوع سقوف الدمس والخشب الحزم والمجلى بالصور والمشاهد الفاتنة. وفي كلياته من عموم شكل القصور والجوامع والرباطات وأسوار المدن.

ثم اعطانا الفن المدجن الذي نشأ بالأندلس ثم عم المعماري الإسلامي بالمغرب في العصور التركية، والمعمار النصراني بأوروبا في عصر نهضتنا. ثم المعمار الأميركي بعد اكتشاف القارة الجديدة.

فأية قوة في هذا الفن البربري الذي عم الدنيا في عصر انحطاطه، وماذا عسى أن يكون مستقبلة الوطني والعالمي في يوم غد؟

2 - الفنون المستخرجة:

وهي الموسيقى والرقص والتمثيل والنحت والتصوير.

أ- الموسيقى:

الموسيقى متصلة اتصالا وثيقا من حيث الأصل المتحد أو المجاورة بالموسيقى الصينية والهندية في الشرق، والموسيقى السودانية في الغرب، والموسيقى الجزرية الايجية في الجهات الجزرية التي يسكنها البربر مثل جربة وقرقنة، وهذه الموسيقى تمتاز أولا بأنها إيقاعية تعتمد على ضرب الكف والقرع والنقر، فهي رقصة مرقصة أصالة، وجملتها الموسيقية قصيرة طبعا وسلم نبراتها لا يتجاوز الخمس فلا يصل النبرات الثماني الكلاسيكية ويستعيز عنها بالطرفة أو "النزرة" البربرية التي جعلت لتغطية المسافة السلمية الفارغة أو بالسواكت الإيقاعية أو المقححات الصائنة مثل "يالالان" في المألوف الأندلسي، و"المذيلات" التي تمتاز بها الطبوع المغربية، وتأثرت هذه الموسيقى خلال العصور بالموسيقى البونيقية التي هي سامية الأصل، وبالموسيقى اليونانية حينما أسس يوبا الثاني معهدا للموسيقى بمدينة شرشال وألف موسوعة موسيقية كبرى، وبالموسيقى الرومانية لاسيما بعد إحداث المعهد الموسيقي الملحق بجامعة قرطاجنة وإحداث "أوديون" للاستماع في كل بلدة من المغرب وأنشاء المباريات الموسيقية ذات الجوائز الكبرى، ولما جاء العرب جاء الحداء فأخذ البربر ارباب القوافل ولاسيما الطوارق، وجاء زرياب إلى القيروان ومونس البغدادي إلى المهديّة

فانتشر الغناء العربي، وزحف الاعراب من صعيد مصر فتفتت القبائل البربرية وتعربت فزالت الموسيقى البربرية من تونس وبقيت في جهات بعينها من الجزائر والمغرب من جبال وصحاري، وجاء بن ابي الصلت من الأندلس فعلم أهل افريقية الموسيقى الأندلسية المبنية على الموشح والزجل والقائمة على الونبة بأجزائها الإيقاعية والاستثنائية والاستبطائية بالخلاف والتوسع في الجملة الموسيقية، ثم سقطت أشبيلية عاصمة الفن فانقل أهلها إلى شمال افريقيا بفنهم، ثم سقطت غرناطة ثم تمت الهجرة النهائية سنة 1017 على عهد عثمان داي، فعمت الموسيقى الأندلسية مدن المغرب وانضمت إليها البشارف التركية، وانحصرت الموسيقى البربرية في الجبال والصحاري مع تأثر ظاهر وتتمثل لنا الموسيقى الرقصية الجامعة التمثيلية في الأحيدوس والأحواش والموسيقى الإنشادية عند قبائل أزموور في المغرب وزواوة في الجزائر.

ب- الرقص:

الرقص البربري ممتاز، يختص بكونه جماعي مثل الأحيدوس والأحواش، وبكونه متحرك صفا أو استداريا وبكونه التوائيا من أسفل إلى أعلى مثل حركات الأفعى، وقد درس دراسات كثيرة لا عيب فيها إلا أنه ليست بالعربية.

ت- التمثيل:

التمثيل قديم عند البربر جاؤوا به من الهند وأسس له يوبا الثاني معهدا لتدريسه بشرشال وألف فيه التصانيف.

والتمثيل البربري اما ديني على الطريقة الهندية واليونانية القديمة فهو أناشيد ورقص وحركات وتصاوير تمثيلية لاسترضاء الإلهة أو إبعاد غضبهم. أو خزعبلات مضحكة للسخرية من بعض الشخصيات البارزة وإظهار عيوب الناس المنتقدة. وشارك البربر في التمثيل اليوناني ثم الروماني لاسيما وقد نبغ منهم طيرستوس القرطاجني أكبر مسرحي باللغة الرومانية. وقد بنى ابن جلدتهم غوردانوس مسرح الجم وهو من أكبر المسارح الرومانية. والمسارح منبثة في شمال افريقيا يدل على ولوع البربر بالفن المسرحي.

ث- النحت:

البربر مولعون بالنحت منذ قديم. وطبيعي أن ينحتوا فقد كانوا عباد أصنام فنحتوا أصنامهم. ثم عبدوا القياصرة فنحتوا قياصرهم. ثم تنصروا. والتمثال من عناصر الطقوس النصرانية. ونحن نشاهد كثرة فاحشة من التماثيل وعامة المنحوتات في الأثار والمتاحف. وإذا خفيت هذه النزعة في صور الإسلام فانها نبهت على عهد الفاطميين. والأزميل البربري من أبداع الأزاميل في النحت الرائع البديع لاسيما بعد أن أسس يوبا الثاني مدرسة للنحت بشرشال وزين قصوره ومعاهده بالمنحوتات.

ج- التصوير:

بدأ التصوير على الصخور منذ عهد متقدمة وهو تصوير خطي ورسومي. والرسوم تمثل الحيوانات والأشخاص فرادى أو جماعات أو في مواكب صيد والتخطيط صادقة والملامح واضحة

إلا أن النسبة مختلفة. وقد يبلغ فن التصوير البربري من دقة الجزئية ما يوجب العجب. واستمر البربر على التصوير فوق بيض النعام والعظام والحجار والصوف والخزف وغالب التصاوير شائكة لإبعاد العين فأكثرها من السمك والجمال والسنابل والطيور وأكثرها من الزخارف الهندسية الشائكة مثل الصليب والمعين.

وبان تصويرهم بارعا فوق الزيتيات الجدارية وفي الفسيفساء وأرقى تصويرهم في العهد الصنهاجي على الخصوص حيث مازلنا نشاهد سقف البالاتينا بمدينة بالرم بصقلية. وهو من روائع الفن الصنهاجي.

ورأينا أن يدرس الفن البربري بمزيد الدقة وأن يحاكيه فنانونا المعاصرون الذين يبحثون عن أنفسهم ويدخلهم العجب المضحك لأنهم صاروا يقلدون نوعا ما الفن الأوروبي.

الفصل السابع

الوحدة البربرية

نذكر جيدا أننا كنا حضرنا في شتاء 1937 بحثا مستفيضا ألقاه الأستاذ ماسينيوس بمعهد الكوليج دي فرانس وجعل موضوعه وعنوانه "الوحدة البربرية" أو "الجامعة البربرية" Le panberberisme.

ما هي الوحدة البربرية هذه؟ هي أولا وبالذات نزعة سياسية موهومة ظاهرها رحمة وباطنها عذاب.. أو بالاحرى إنها كلمة حق أريد بها باطل. فقد كانت الوحدة البربرية حقا واقعا عندما أسس ماسينيسا وسيفاكس ويوغورطه وغيرهم من ملوك البربر إمبراطورية بربرية متحدة في القرن الثاني قبل الميلاد واغتنموا لذلك فرصة الحروب البونيقية القائمة بين القرطاجنيين والرومان.

ولقد كانت الوحدة البربرية حقا واقعا عندما أسس العاهل بلكين بن زيري الصنهاجي إمبراطورية بربرية ضمت الجزائر وتونس وطرابلس وكادت تضم المغرب الأقصى بعد ما فتحت فاس. وضمت فعلا جزءا من الأندلس.

وكانت الوحدة البربرية حقا واقعا حينما أمس المرابطون إمبراطورية بربرية وحدت الأندلس وإفريقيا الشمالية قاطبة.

وكانت الوحدة البربرية حقا واقعا حينما أسس الموحدون الوحدة المغربية من جبال البرانس في الأندلس إلى تخوم مصر وأقاموا فيها دار الخلافة الموحدة ثم الحفصية.

هذه هي الوحدة البربرية الحققة الواقعية. وأما الوحدة التي يرمي إليها ماسينيوس واضراب م. ماسينيوس - أو على الأقل - التي كان يرمي إليها. فقد رجع من بعيد. فهي وحدة باطلة ضالة مضلة.

وبعد فما هي الوحدة البربرية في نظر ماسينيوس؟ روج الباحثون الفرنسيون في الأذهان أن البربر من الجنس السلتي أو الكلتي والسلت جنس هندي أوروبي قد سكن أوروبا الغربية في عصور متقدمة قبل الميلاد فمنه الولش سكان إنجلترا القدماء والبلج سكان بلجيكا القدماء والغالليون سكان فرنسا القدماء والايبيريون سكان اسبانيا القدماء.

وهذه النظرية التي تريد أن تجعل البربر من السلتي ترمي إلى أن تجعلهم طبعا من الغالين. أي أنهم يتحدون جنسا مع قدماء الفرنسيين. وإذا تحدوا معهم جنسا من القديم فقد تعين أن يتحدوا مع الفرنسيين جنسا في الحاضر؛ فتلك بضاعتنا ردت إلينا؛ فالغالليون سلتي. والبربر غالليون والغالليون فرنسيون. والبربر غالليون. فالبربر فرنسيون وهكذا؛ فبواسطة قضية منطقية شكلية مركبة من كبيرين وصغيرين نصل إلى

نتيجة واحدة مقررة هي أن البربر فرنسيون من ناحية الجنس وقد بقي أن يجعلهم فرنسا فرنسيين من ناحية اللغة والثقافة وهذا أمر بسيط تكفلت به المدرسة الفرنسية التي لا عربية فيها. وبقي أن يجعلهم فرنسيين حضارة وهذا أمر تكلفت به العناية العلمية المرتبة التي ترمي إلى إسقاط القيم الإسلامية والعربية وإحلال القيم الفرنسية مكانها في الروحيات والأدبيات والماديات؛ فالمدنية العربية قديمة، والمدنية الفرنسية حديثة، الثقافة العربية قديمة والثقافة الفرنسية حديثة، والأكل العربي قديم والأكل الفرنسي حديث، فيكفي أن ننفر الناس من القديم ونحشرهم إلى الحديث حشر الأنعام ليبعدوا عن الحضارة العربية ويرتموا في أحضان الثقافة الفرنسية: وبقي أن يجعلهم فرنسيين دينا وهذا أمر تكفل به المبشرون، فهذه العمليات بسيطة في ذاتها -على الكاغد على الأقل- ولا عيب فيها إلا أنها ليست بسيطة فقط بل ساذجة أيضا، أي درويشية على أصح عبارة فكانت النتيجة معكوسة طبعاً، نعم سيدي ومعكوسة على خط مستقيم، فليس فقط لم يتفرنس البربر ولم "يتغلوا" ولم "يتسلتوا" بل زادوا عروبة على عربيتهم وإسلاما على إسلامهم، بل كان زعماء الإسلام والعروبة في الجزائر مثلا من صميم البربر أمثال فرحات عباس ومصالي الحاج وعبد الحميد بن باديس الصنهاجي.

وكانت النتيجة معكوسة لأمر بسيط جدا هو أن المقدمة التي انبنت عليها النتيجة هي أيضا معكوسة فمن الطبيعي والبديهي أن تعكس النتيجة وفاقها.

فقد كان أصحاب النظرية في بساطة عقولهم وساذجة تفكيرهم واستسهال مرماهم يبنون قبة فوق حبة ويتخذون من البعوضة جملا، ويجعلون من رغائبهم واقعيات ومن أوهامهم حقائق ومن أحلامهم عالما شهوديا.

لقد مرت هذه القضية باطوار وخلفت أبطالا من الأنصار والخصوم وأسالت بحارا من الموارد واستغرقت قناطر مقنطرة من الورق وأثارت زوابع من الحماس وانتهت كذيل السمك في مهزلة مضحكة مبكية!

بدأت "القضية البربرية" في منتصف القرن الماضي يوم كانت السياسة الفرنسية المتعبد بالجزائر يتعاورها عاملان، العامل الأول نزعة الملوكية الفرنسية من نابليون الأول إلى نابليون الثالث في إيجاد "امبراطورية عربية" فقد حاول نابليون الأول إنشائها في مصر والشام، وحاولت الحكومة الملوكية الفرنسية انشاءها بالجزائر وتاليها من العنصرين البربري والعربي الملتحمين في الواقع، واما العامل الثاني فهو نزعة الإدماج أي فرنسة الجزائر والسعي إلى إدخالها في حظيرة النصرانية، وبالإشارة انتصرت النزعة الثانية لاسيما بعد حرب السبعين وانتصاب الجمهورية الثالثة فهب هانوتو يثبت أن البربر غير العرب وأن البربرية لغة قائمة بذاتها مستقلة في متن لغتها وأسرار تراكيبتها ودورات دواليبها وأن لها أدبا حربيا بكل تمجيد ينبغي جمعه لبعثه وتنشيطه لتغلبه، وهبت إدارة التعليم إلى إيجاد مدارس عربية للعرب ومدارس بربرية للبربر، وهبت مقالات الصحف تمجد البربر وتنفخ في نار النعرة البربرية وتنقيص العرب ومؤسسات العرب.

وهب الباحثون المغرضون يدرسون المؤسسات البربرية وبينون دعائم حضارة بربرية ليحاولوا من ورائها إيجاد وطنية بربرية ضد العرب أولاً وضد الإسلام ثانياً. وهبت الحكومة تقسم لتسود فتؤلف المناطق البربرية على حدة والمناطق العربية على حدة. وهبت المدارس المدرسة العليا الجزائرية تؤسس شهادات اللغة والأداب البربرية. وتنشر كتب النحو ومجاميع النوادر والقصص البربرية، ولكن هذه الموجة الجارفة الطاغية لم تهز حماس البربر ولم تستفز إلا ابتسامة العرب.

وفي أوائل القرن ظهرت "القضية البربرية" بتونس أيضاً. فهب الطبيبان شانتر ونيرتولون يؤلفان تصنيفاً ضخماً جداً في مقاييس جماجم البربر وأنها مفاطحة أو مستطيلة، وتوصيف أصباغ شعورهم وألوان عيونهم وأطوال جسومهم مع المقارنة بين جميع ذلك وبين مقاييس جماجم الغالين وتوصيف أصباغ شعورهم وألوان عيونهم ومعرفة أطوالهم. فتبين بعد طول البحث وبسط أعمق النظريات - التي من شدة ظهورها الخفاء - أن الشعبين هما بحمد الله أشبه من الماء بالماء وأنهما من أرومة واحدة ما في ذلك من شك وأن العرب قد تدخلوا

بغزواتهم الوحشية ففرقوا قوائين شعبيين خلقهما الله للألفة والاتحاد. وأما الآن وقد زال سلطان العرب فلم يبق على الشعبين إلا أن يتألفا من جديد فصرنا نسمع أولادنا يكررون ملء حناجرهم في مدارسنا "أباؤنا الغالين" "كان أجدادنا يسمون في القديم الغالين وكانت بلادنا تسمى غالياً" كلنا كررنا هذه العبارات مرارا وتكرار في غير إيمان كبير مع جانب غير قليل من

الاندهاش.

وتكون في بعض المدارس معلمة فرنسية طيبة القلب زكية النفس فتري البنيات المسلمات بتقاريطن وقباقهن وهن يسردن "كان أجدادنا من الغالين وكانت بلادنا في القديم تسمى" بنفس النفس الذي يسردن به "جعجونه! جعجعونه!" فتغرورق عيناها دموعاً من الوجد وحمد الله كثيراً في السر والعلانية على أن هؤلاء البنيات هن حفيدات فرنسا يخوريكس الغالي ما في ذلك من مرأء!

واعتقد مديرو المعارف "التسعة" الذين تعاقبوا على الإدارة اعتقدوا اعتقاداً راسخاً أنهم قاموا بمهمتهم أحسن قيام لأن أبناء المدارس من التونسيين قالوا "أجدادنا الغاليون وبلادنا في القديم تسمى غالياً".

وفيما يخصني أنا (وأعوذ بالله من كلمة أنا كما ورد إذ كلمة أنا مقبلة كما قال بسكال) فقد كنت اتعجب جداً عندما كنت صغيراً من أن غالياً هي بلادنا فانا اعرف أن غالياً هي جزء من بلادنا. فلماذا هذا التعميم يا ترى؟ وغالياً الأخيرة هذه هي ناحية بتونس فيها مباقل ومروج فكانت أذهب بميعة أبي رحمة الله تعالى لأكل منها الخس والبسباس وأتساءل في ضميري الباطن وطني عقدي لماذا غالياً الصغيرة هذه قد أصبحت في مدرستنا كل الملكة التونسية. وللمدارس يرمئ في تعليمها وتعاليمها أسرار.

ودخلت الاذاعة التونسية سنة 1938 كرئيس للقسم العربي

وكان عندنا في القسم الفرنسي أحد أساتذة معهد كارنو يسمى يحي عمروش وهو قبائلي فكان مختصها بإذاعة عن الموسيقى القبائلية تنشده أخته المغني. وينشد هو المعنى. وكان في الحسبان أن هذه الإذاعة ستحدث انقلابا في ذهنية البربر فتحولهم بين عشية وضحاها إلى غاليين أو أنصاف غاليين على الأقل (وعبدكم يقنع بالربع من ذلك اذا تيسر) ولكن لم يكن من ذلك شيء حتى أن يعتبر على الأقل طرفة فنية وخفة غنائية.

وقبيل ذلك بقليل اصدر العلامة الألماني الدكتور لاخمان دراسة علمية عن الموسيقى بالمغرب اثبت فيها ان الأنغام البربرية قد اضمحلت من هذه الربوع منذ أجيال فبقول من نأخذ ياترى؟

وقبيل الحرب الأولى بقليل زحف الايطاليون على طرابلس وسلكوا هناك أيضا "السياحة البربرية" التي ترمي في الظاهر إلى إرجاع السيادة إلى البربر وتطهير البلاد من العرب "المغتصبين" وشمر الباحثون الايطاليون عن ساعد الجد يدرسون اللهجات البربرية والآداب البربرية والعقائد البربرية والحضارات البربرية، وبثوا بذور الشقاق بين العنصرين على قاعدة فرق تسد. فلم ينجوا من ذلك طائلا بل كان زعماء المقاومة من البربر كثيرين نخص بالذكر منهم المجاهد العالم الأديب الفقيه الألعى الشيخ سليمان الباروني وناهيك.

وأسس الفرنسيون بالمغرب الأقصى "معهد البحوث العليا المغربية" وخصصوه في البحوث البربرية ونشروا لذلك

"هسبريس" وطفقوا يصنعون عن لهجات البربر وآدابهم ونفسياتهم وأخلاقهم وعاداتهم ومعتقداتهم التصانيف المطولة وتخرجت طائفة من "المتبريرين" اى المختصين في البحوث البربرية وعاشت في الجبال مع القبائل في عقر ديارها. وكانت نتيجة ذلك ان قال لنا بعض أصدقائنا الذي كان مترجما في الجيش هناك: "...وعندما ندخل القرية النائية في أعالي الجبل البعيدة عن كل تأثير عربي نجد اسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم قد سبقتنا بدهر إلى أحقر الأكوام!"

وهذه الظاهرة القوية الدلالة لم تمنع صدور الظهير البربري المعروف الذي قام له العالم الإسلامي وقعد ولم تمنع التجربة البربرية ضد جلالته سلطان المغرب وحوادثها الاليمة لم تنزل عالقة بالآذان.

نريد أن نفهم هنا ما هو سبب اخفاق "الوحدة البربرية" كما كان يريداهم. سينيوس الذى رجع من بعيد؟ لذلك في نظرنا أسباب كثيرة سنحاول بيان البعض منها:

أما أولا فإن أصحاب النظرية قرورا الأمر ونقيضه فهم من جهة يقررون الإمبراطورية البربرية والوحدة البربرية والسيادة البربرية. ومن اخرى يقررون أن البربر عاجزون عن تكوين إمبراطورية وقصاراهم أن يؤسسوا جامعة صغيرة. في قرية حقيرة أي أصغر وحدة حكومية.

أما الوحدة الحكومية الكبرى التي هي الإمبراطورية فهدهم عنه عاجزون ولا تسمح به "العقلية البربرية" التي هي "عقلية

البربر

انفرادية"؟!

وفي تناقض واضح بحيث أن النظريتين تنطاحنان وتبیدان أحدهما الاخرى فنخرج من الموضوع بصفر.

وأما ثانيا فإن الرومان جعلوا من البربر قياصرة مثل سبتموس سافاروس وغوردیانوس والعرب جعلوا منهم قادة فتح وخلفاء إسلام وأما الفرنسيون فلم يفسحوا في وجوه البربر المجال حتى يطمعوههم بالفكرة الإمبراطورية.

وأما ثالثا فإن الإسلام والعربية حائلان دون كل اندماج مع العناصر الخارجية.

ولا تكون "الجامعة البربرية" الآن أو غدا إلا كما كانت بالأمس، مثلما بناها بلكين وباديس ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وأبي زكرياء الحفصي، أي وحدة إسلامية عربية بقيادة زعيم من البربر إذا شئت.

والرأي النهائي الذي نختم به الدراسة هو أن البربر من أهم عناصر الإسلام دينا وثقافة وفنا وسياسة وزعامة وتفكيراً.

فإمبراطورية الغد تتألف من اتحاد الدول المغربية البربرية العربية، ومن الجامعة العربية ومن الجامعة الإيرانية الطورانية الهندية، تكللها جميعاً الجامعة الإسلامية التي يترأسها خليفة منتخب، ولا مانع أن يتزعم البربر من ناحية أخرى وحدة القارة الإفريقية وما ذلك على همتهم بعزیز، والحمد لله أولاً وأخراً.

البربر

تأليف: عثمان الكعك
أعدّه للنشر: تامغناست



ننسى أن قبيلة كتامة البربرية قد نقلت على كاهلها الخلافة الفاطمية إلى مصر والشام، ونشرت المذهب الشيعي في جزيرة العرب شمالا وجنوبا وجعلت الخلافة العباسية قاب قوسين أو أدنى من هلاكها؟ ولا ينبغي أن ننسى أن الجيش اللوبي هو الذي اعتمده قرطاجنة في حروبها وأن انتصارات حنبل قد قامت على كاهل الفرسان الليبيين والفيالين ففتح بهم اسبانيا وغاليا وايطاليا: وأن الجيش النوميدي البربري والجنطوك البربري هما اللذان سمحا إلى جانب عظيم بإنشاء الإمبراطورية الرومانية: وأن جيوش طارق البربرية هي التي فتحت الأندلس مع جيوش العرب وأن جنود عبد الرحمن الغافقي التي فتحت فرنسا كان معظمها من البربر. وأن دولا كثيرة قامت على كاهل البربر كالأمويين في الأندلس، والأدارسة بالمغرب والرسنميين بالجزائر والأغالبة بتونس والفاطميين بالمغرب والمشرق: وأن دولا كثيرة قامت من البربر كملوك الطوائف بالأندلس والمرابطين والموحدين بالمغرب، والحمايين والزنانيين بالجزائر، والصنهاجيين والحفصيين بتونس، والخزرونيين بطرابلس، ولم تقم على البربر وللبربر دولة سياسية فقط بل قامت بهم ولهم دولة اقتصادية ودولة علوم ودولة فنون، ولم تقم لهم هذه الدول في عصر من العصور فقط بل في كل عصر من العصور، ولم تقم لهم هذه الدول في مصر من الأمصار فقط، بل في كثير من الأمصار الإسلامية من الأندلس إلى مصر إلى قلب إفريقيا السوداء، فنحن إذ نؤرخهم نؤرخ الجناح السيار من البحر المتوسط في حوضه الغربي، ونؤرخ شعبا حيا متوثبا ماجدا جليلا، إلا أننا لا نريد أن

مستهل

هذا كتاب صغير في موضوع كبير، وبحث قصير في مبحث طويل، ونظرة جديدة في قضية قديمة، وبعد فهذا جئنا على هيامبسال ملك البربر وشيخ مؤرخي الأقدمين، وعلى المطماطي كبير نسابهم، وعلى ابن خلدون فيلسوف المؤرخين: وهذه الخطوة الجسورة. قد خطوناها على حال في تواضع وبدون كبير ادعاء، لأننا لا بد أن نخطوها لتحرير الموضوع، ووضع القضية في إطارها وبيان عناصرها وتلخيص فصولها واستعراض مراحلها في الزمان والمكان وتبسيط المعرفة عنها في ذهن الجمهور النير، وعلى الخصوص لرفع اللبس المتراكم عليها من صنيع مدرسة الجزائر التاريخية التي تلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، والواقع إننا نلاقي البربر في كل عصر من اعصار المغرب، وفي كل مصر من أمصاره، فكيف لانؤرخهم؟ ونلاقي البربر في كل حقبة من تاريخ الإسلام، وفي كل حادث إسلامي ذي اثر، فكيف لانؤرخهم؟ ولعلهم اكبر الشعوب الإسلامية، - أو على الأقل - من اكبر الشعوب الإسلامية التي لعبت دورا أساسيا في تاريخ الإسلام، لاسيما في الأندلس وصقلية والمغرب وإفريقيا السوداء، وكيف

نطمع القارئ الكريم في إطناب مسهب وإحاطة شاملة، وإنما هي نظرة خاطفة واستعراض سينمائي بهما المهتم بما يجب معرفته ولا يحسن الجهل به وذلك وفاقا لبرنامج هذه السلسلة الكريمة ووقوفا عند حدود الكتابة المعينة ولم نشأ أن نجعل هذا الاستعراض جافا كالجذع المجرد من العصارة والأغصان والأوراق والأزهار، ولا بحثا مدرسيا تنزله من علو منصتنا الدراسية على قراء مستضعفين. ولا صورا تاريخية متحركة مجردة من الروح. بل حاولنا قصارى الجهد أن نجعله بحثا حيا جداليا أحيانا واستصبحنا مؤرخي العصور يصفون لنا في إيجاز أخبار هؤلاء البربر، ولا نقول إننا جحنا في ذلك كثيرا أو قليلا أو لا شيء فالحكم في ذلك لحضرات القراء وبالله التوفيق.

عثمان الكعك

جبل المنار

جمادى الأولى 1375

الفصل الأول

مؤرخو البربر في العصور القديمة

الشعب البربري، أو شعب أمازيغ - أي الأشراف الأحرار- نزح إلى شمال إفريقيا بعضه من أوروبا وبعضه من اليمن على طريق الحبشة ومصر وليبيا، وانتشر في ربوع المغرب وجهات من الصحراء وأطراف من مصر، واستقر بكثير من الجزائر، مثل جزائر الكناري في المحيط الأطلسي وجزر سردينيا وصقلية وقوصرة ومالطة في البحر المتوسط وكان ذلك في عصور متقدمة لا تقل عن ثلاثين قرنا قبل ميلاد المسيح.

ولهذا الشعب خصائصه الجنسية في الطول وصبغة الشعر ولون العين وشكل الجمجمة: كما له عادات خاصة به عائلية وقروية وموسمية ودينية، وله لغته البربرية المتميزة بذاتها المعروفة من قديم والمتسلسلة إلى الآن التي لها أدبها الشعبية والعلمية شفهية وكتابية؛ وله عقائده القديمة الوثنية، وقد تتبع أديان الشعوب التي غزت بلاده لكنه استبقى في العقائد الجديدة كثيرا من عقائده أو أوهامه الوطنية القديمة؛ ولم ينع بذلك حتى ميز نفسه بمذهب جديد في كل دين جديد اعتنقه

ليكون متميزا عن الشعب الفاتح المكتسح ومحافظا على خصائص قومية بأي شكل من الأشكال. فاعتنق اليهودية في عصر ما. ولكنها يهودية خاصة به. فما أبعد ما بين موسوية يهود جربة أو يهود صفرو بالمغرب وغيرهم من اليهود. وكان من أسرع الشعوب لاعتناق النصرانية يوم ظهرت. وابتدع لها أحد أبنائه البرابرة القديس اوغوستيوس مذهب الكتلثة ليميز عن النصرانية السلفية، فلما عمت الكتلثة الرومانيين الفاتحين ابتدع الدوناتوسية وهلم جرا. وكان البربر من اسبق الشعوب إلى اعتناق الإسلام، ثم كون في الإسلام مذاهب خارجية امتازت بها قبائله وصارعت من أجلها الحكم القائم. هذا الشعب الذي هو متدفق الحيوية مفرط النشاط المتميز بحب أرضه والمتفاني في خدمة تربتها، وهذا الشعب المتمسك بمؤسساته القومية قد أثار إعجاب الباحثين منذ قديم وأدهش الناظرين من شعوب العالم بما له من تاريخ ماجد حافل بالأعمال الجليلة. لذلك أقبل المؤرخون والجغرافيون منذ العصور القديمة على البحث عن مخصصاته ومميزاته.

ولعله من الخير أن نستعرض أخبار من درس هذا الشعب لنعلم منها كيف كانت احوال البربر في العصور وكيف تصور الباحثون أحوال البربر من طور إلى طور فنبحث في الفصل الأول عن قدماء المؤرخين والبربر.

وفي الفصل الثاني عن ابن خلدون والبربر. وفي الفصل الثالث عن الأوروبيين والبربر.

القدماء الذين بحثوا عن البربر: مصريون وبونيفيونيون ويونان ورومان وبربر.

المصريون:

لعل المصريين أقدم من روى لنا أخبار البربر، والأمر مفهوم فإن من النظريات الرائجة توجد النظرية الحامية التي تقول إن البربر من الحاميين وهؤلاء الحاميون هم المصريون الفرعونيون والحباشة والصومال والسودانيون، فالبربر والمصريون أبناء أعمام. فلا غرابة أن يكون المصريون قد اعتنوا بدراس أحوال البربر. ولو بمنتهى الإيجاز.

ونحن نجد في النقائش المرسومة على معالم المصريين من مصاطب وأهرام ومسلات، وفي الوثائق المصرية المكتوبة على البردي. نجد فيها جميعا معلومات عن القبائل البربرية المعاصرة للفرعنة ولاسيما من كانت منها متاخمة لمصر وبلاد برقة على الخصوص. وهذه الوثائق المنقوشة أو المكتوبة تسمى " تاحومو " أو " ريو " ومنها " لوبو " الذي هو الاسم القديم المطلق على البربر، ومن كلمة لوبو جاءت لوبيا التي حرفت إلى ليبيا، تسميهم أيضا " لشببط " ومنها جاء اسم القبيلة البربرية اشبوستاي عند اليونانيين، وسمتهم أيضا " بقن " و " مشوش " إلى غير ذلك، ولم تقف هذه الوثائق عند حد ذكر أسماء القبائل بل تعدت ذلك إلى دراسة الخصائص البشرية والعادات والأخلاق وما يتعلق بحضارة البربر بوجه عام، وكان هؤلاء البربر طالما حاربوا المصريين فغزوا بلاد مصر وقتلوا من قتلوا وأسروا وسبوا وغنموا. وفي عهد

فرعون عصر منو فتاح تألب البربر ومن انضم إليهم من سكان الأقطار الواقعة على سواحل البحر المتوسط وأرادوا القضاء على سلطان مصر وهيمنة المصريين وانتهت هذه المشادة المسلحة بانتصار المصريين. وتظهر لنا العلاقات التي كانت قائمة في تلك العصور بين البربر والمصريين كعلاقات بين قبائل مترحلة شبيهة بالتحضرة وأمة قد بلغت درجة راقية من الحضارة. ويفسر هذا بأن العلماء قد بحثوا حضارة المصريين ولم يبحثوا حضارة البربر. فالأمر يحتاج إلى زيادة تنقيب لنعلم بالضبط ماذا كانت حضارة البربر في تلك العصور. إذ أن نظرة عميقة في أحوال الشعبين تدلنا على مشابهة بين الحضارتين وألفة بين خصائص الأمتين. على أن الحفريات الأولى التي أجريت على حدود برقة في التخوم الليبية المصرية تدل على أن الحضارة الأولى مصدرها البربر وانتشرت منهم إلى من داناها من المصريين. وكون البربر وقفوا في حين ما. عند مستوى معين من الحضارة بينما المصريون الذين أخذوا عنهم سبقوهم في هذا الميدان بمراحل فتفسيره أن موطن البربر ضعيف اقتصاديا وموطن المصريين قد أخصبه النيل فانبرى المصريون إلى الأمام بفضل هذا اللون من الحضارة النهرية وبقى البربر مكانهم في رمال الصحراء.

البونيقيون:

البونيقيون هم الفينيقيون الذين " تونسوا " واختلطوا بالبربر فتميزت خصائصهم الحضرية عن خصائص أجدادهم أهل صور وصيدا من مدن فينيقيا الذين أسسوا مراكز تجارية على طول السواحل الغربية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولما كانوا

عربا من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية. وانتشرت الحضارة البونيقية وعمت الثقافة البونيقية البربر حتى أنهم لما أسسوا ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هي اللغة البونيقية وبها ألف البربر تصانيفهم ولم يكن بربري مثقف لا يعرف اللغة البونيقية حتى أن الرومان لما انتصروا على البونيقيين وأخذوا قرطاجنة انتزعوا ما يوجد في المكتبات من الكتب البونيقية ووزعوها على البربر.

وأدب كل أمة هو مرآة تنعكس عليها أخلاقها ومنازعتها ومطالبها. والبونيقيون أمة بحارة وتجارة وفلاحة. فمعظم تصانيفهم فلاحية ورحلات بحرية أشهرها الموسوعة الفلاحية التي ألها ماغون القرطاجني وهو أقدم موسوعة فلاحية في الدنيا ثم رحلة حنون القارة الإفريقية ورحلة عملقوا إلى سواحل أوروبا الغربية وجزائرها وخصوصها جزائر بريطانيا العظمى التي كان يذهب إليها البونيقيون لطلب معدن التصدير. وما وصلنا من الأدب البونيقى إلا هذه التصانيف وما وصلتنا من هذه التصانيف إلا نتف مبعثرة في كتب اليونان والرومان. ونعرف من هذه النتف على قلتها بعض أحوال البربر العائشين بالمغرب الأقصى على سواحل المحيط الأطلسي وضاف نهر النيجر ولاشك أن البونيقيين ألفوا أكثر من ذلك بكثير. ولاشك أيضا أنهم اعتنوا بتاريخ البربر ووصف أحوالهم لأنهم كانوا يعرفون عن كتب. وشيء آخر هو أن البونيقيين قد استهلنوا في آخر مدتهم إذ تأثروا بالحضارة الهلنية اليونانية وصارت قرطاجنة مثل أثينا والإسكندرية وقريبي وشرشار مركزا للحضارة اليونانية وبها

في الآن الواحد جالية يونانية منتجة كما بها ارسطوقراطية بونيقية نيرة متأثرة إلى أبعد حد بالثقافة اليونانية. فكان مؤرخا حنبل يونانيين وكانت النساء البونيقيات أنفسهن متضلعات في الأدب والفنون الإغريقية، وسنتحدث عن مؤرخي اليونان بقرطاجنة في مبحث بعد هذا، وقلنا من جهة أخرى إن البربر المثقفين الذين ظهوروا في القرن الثاني قبل الميلاد والذين سعوا إلى استقلال بلادهم وبناء إمبراطوريتهم كانوا يحررون تصانيفهم التاريخية وغيرها باللغة البونيقية في الغالب. وسنولي الحديث عنهم في مبحث يأتي إن شاء الله تعالى.

وبالجملة فما كتبه البونيقيون عن البربر لا بد أن يكون كثيرا وعميقا ومستوعبا إلا أن ما وصلنا منه هو النزر القليل لضياح المكتبات البونيقية وإحراق الرومان لتلك التصانيف العلمية وذلك أحد آثار الرومانيين التاريخية التي لا تماثلها وحشية وجناية على العلم البشرى.

المؤرخون اليونانيون:

ابتدأ المصريون البحث عن تاريخ البربر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وابتدأ البونيقيون البحث عنهم ابتداء من القرن السابع، وابتدأ ذلك اليونان ابتداء من القرن السادس.

واليونان الذين درسوا البربر إما الأصليون من بلاد اليونان أصالة، أو من الجالية اليونانية بمدينة قرطاجنة أو من الجالية اليونانية بمدينة قريني في ليبيا، أو من البربر المستهلين الذين كتبوا باليونانية وهذا الصنف سندرسه في مبحث آخر، وبالجملة

فمؤرخو اليونان وعلماء الجغرافية منهم هم أدق القدماء وأوسعهم دراسة لأحوال البربر كما سنرى.

هيقاطوس:

يظهر أن أول من كتب عن البربر من مؤرخي اليونان وجغرافيينهم هو هيقاطوس الذي ألف في آخر القرن السادس أو أوائل الخامس مصنفا جغرافيا يتألف من قسمين: قسم يتعلق بأوروبا، وقسم يتعلق بآسيا، وقد أرف القسّم الأسيوي بفذلكه عن جغرافية لوبيا أو بلاد البربر، وقد سافر هيقاطوس كثيرا وزار مصر وأقام بها واستفاد من أهلها كثيرا عن أحوال البربر، وقد ضاع كتابه ولم يبق منه فيما يخص البربر إلا نحو 30 نبذة تتعلق في الغالب بأسماء مدن أو جزائر لم يقع على الأكثر تعيينها وحقيق هويتها. وما وصلنا من تصنيف هيقاطوس لا يفيدنا عن أصل البربر أو عاداتهم أو أسماء

قبائلهم أو أنسابهم. ومع ذلك فكتابه هو الذي عول عليه هيرودوتس أو -على الأقل- عول على الكثير منه في تصنيف ما كتبه " أبو التاريخ " عن البربر، وأثبت الباحثون أن ما اقتبس هيرودوتس عن هيقاطوس هو من الأهمية بمكان.

هيرودوتس:

شيخ المؤرخين اليونانيين، أو شيخ التاريخ على الإطلاق كما ينعت عادة -هو هيرودوتس الذي ولد ببلاد الإغريق سنة 484 قبل الميلاد أي في عصر ازدهار الحضارة البونيقية بتونس - وقد زار هيرودوتس مدينة قريني -الشحات بولاية برقة في

ليبيا- سنة 455ق م. وأخذ من أهل قريني الذي هم أكثرية بربرية وأقلية يونانية وبونيقية وثائق دقيقة ومعلومات صحيحة جدا عن سكان الشمال الشرقي من أهل المغرب. فقسم السكان الأصليين إلى اتوبيين ولوبيين. وبين لنا منازل هؤلاء اللوبيين (البربر القدماء) ودرس بعض عاداتهم. إلا أنه من الصعوبة بمكان إيجاد أوجه الشبه في أسماء القبائل التي أوردها هيرودوتس والتي أوردها ابن خلدون.

يقول هيرودوتس إن القبائل اللوبية التي تسكن بلاد ممرم يقايني مصر وبرقة جنوب مدينة قريني تسمى "اسبوط" وتتأخما في الغرب منها نحو الصحراء قبائل أوسخير وقابالة وتوجد بجهة فزان قبائل الغرامانت. وأنت على طول ساحل السرت فقبيلة ناسامون الكبرى. وبين خليج السرت الكبير وخليج السرت الصغير (خليج قابس) ضربت قبائل ماغ أومالك ثم قبائل غندانة ولعلها جدالة التي ذكرها ابن خلدون وأما جربة السواحل المقابلة لها فقد استوطنتها قبائل اللة النبق "لوطوفاج" الشاعر اليوناني الكبير هوميروس في ملحتمه الأوديسة. (التي ترجمها البستاني إلى العربية أبداع ترجمة).

ويسكن الساحل الشرقي التونسي بين جربة ونهر مجردة قبائل "ماخلوه" ويسميه الجغرافي اليوناني بطليموس "ماخونه" ونرى في هذه التسمية مشابهة بمازيغ لفظة ماخ أوماغ أو مالك أو ماق أو ماس بالبربرية القديمة معناها الكبير أو الشريف. ويصح أن تكون لفظة ماخونه هي مازونة البربرية وهي اسم قبيلة مشهورة ما تزال بعض أفرادها ضاربة بالوسط

الجنوبي التونسي.

وأما في شمال مجردة فالناحية الشرقية بين ماطر وخليج تونس يسكنها الأوسية وهي الإقليم الذي يسميه ابن خلدون سطفورة فإذا اعتبرنا "أو" بمعنى "أولاد" فيمكن تفسير أوسية باولادسية أو أولادسوة على اختلاف النطق مع زيادة فوره التي لا ندري معناها بالبربرية فتكون سطفورة أو "سوه" أو "سوط" مع حذف "فورة" ضاربة بهذه الجهة من عهد هيرودوتس أي من القرن الخامس قبل الميلاد.

أما في الشمال الغربي من نهر مجردة في بلاد خمير ونفرة ومقعد الآن فتوجد قبائل ماكوة. ولعلها هي غير مقعد.

وتوجد بعد ماكوة قبائل زواقة أو زواغة أرزارة وهي زوارة من ناحية وزاواة من ناحية أخرى. فيظهر من هذا أن مقعد وزوارة وزواوة مازالت بعين مواطنها من عهد هيرودوتس إلى الآن.

ويبين لنا المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن البربر ينقسمون إلى فريقين. فمن كان منهم بتونس أي بالمغرب الأدنى فهو مترحل. ومن كان منهم بالغرب الأوسط فهو يسكن السهول يحرق فيها ويفلح ويسكن الجبال التي تعم الغابات. وقد بين لنا هيرودوتس أن سكان الجزائر من البربر هم الجيتوليون أي الذين سماهم العرب فيما بعد جدالة وغزولة وجزولة وفزولة. وأما سكان الغرب الأقصى فهم الفاروزيون.

ودرس هيرودوتس عادات البربر في الأكل والشرب واللباس والمواسم فأعلمنا أن النسوة البربريات يزغردن ويولولن وتعجب

من هذه العادة التي لم يكن يعرفها وأنهن يوشمن ويتخضبن وبين لنا حتى عادات البربر في المدافن.

ونحن سنقتبس في عين هذا الموضوع من هيرودوتس مقتبسات تبين لنا أن هذا المؤرخ عرف البربر عن كثب.

سيلاكس ورحلته:

ألف البحار اليوناني سيلاكس رحلته في القرن الرابع قبل الميلاد. فوصف لنا سواحل افريقية والغرب وسواحل مراكش على المحيط الأطلسي ويعتمد سيلاكس في رحلته التي دونها على مشاهداته الخاصة ولكنه يعول أيضا على رحالين يونانيين قد سبقوا عهد هيرودوتس.

ديودورس الصقلي:

ومن المؤرخين اليونانيين الذين اعتنوا بالتحدث عن البربر ديودورس الصقلي المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الأول قبل المسيح في عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس وألف مكتبة تاريخية ثمينة جدا هي عبارة عن تاريخ العالم من الأول إلى سنة 60 ق. م. وفيما يخص موضوعنا تحدث ديودورس خاصة عن زحفة اغاثوفليس الصقلي الذي هاجم الوطن القبلي (جزيرة أبي شريك) في القرن الرابع قبل الميلاد وحاول افتكاك البلاد من القرطاجيين وهو الذي بني مدينة قليبية. نقل لنا ديودورس أخبار هذه الزحفة اعتمادا على المؤرخ اليوناني دوريس الذي كان معاصرا لها غير أن حديثه قليل العناية بالبربر مباشرة لانصراف السياق إلى ذكر أطوار الحرب وإفاضة الحديث عن اليونانيين والقرطاجيين.

ومع ذلك فالمدقق يستطيع أن يجتني منه بعض الثمار.

ايراتوشينس الجغرافي:

رياضي وفلكي وفيلسوف وجغرافي كبير منسوب إلى مدرسة الإسكندرية اليونانية المشهورة في العصور القديمة بمكتبتها ومذاهبها التعليمية إلا أنه في الحقيقة ابن مدينة قريني (الشحات) الليبية التي كانت عاصمة ثقافية يومئذ. فهذا مؤلف مواطن للبربر وابن بلدتهم فلعله من اعرف الناس بهم. وهو معجزة القطر الليبي في العصور القديمة. كتب ايراتوشينس موسوعة جغرافية كبرى في الثالث الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد. فهو يعرف البلاد إلا أنه يشتكي من أن القرطاجيين لا يسمحون بدخول قسمها الشمالي والغربي بسهولة. وقد اعتمد في تصنيف هذا الجزء من كتابه على رحلة حنون القرطاجني وعلى تصنيف مواطنه اوفيلاس القريناوي هذا علاوة عن مشاهداته وانطباعاته الخاصة. ومن سوء الحظ أن هذا التصنيف قد ضاع إلا بعض نتف منه جمعها الباحثة الألمانية برفر ونشرها بمدينة لبيك سنة 1880.

اوفيلاس القريناوي:

أصله من مقدونيا وهو أحد رفاق الاسكندر الأكبر. ثم صار عضدا لملك مصر بطليموس فغزا قرينا سنة 323 ق. م. وصار عاهل برقة وصاحب السيادة فيها. وعقد اتفاقا مع اغاثوفليس السرقوسي لافتكاك قرطاج. والذي يهمننا منه هاهنا انه جمع وثائق وأخبار عن بلاد البربر تحدث فيها أصالة فتوحاته وفتوحات

زميله اغاثوفليس ووضع رحلة وصف فيها سواحل ليبيا.

بوليس

هو أحد مؤرخي اليونان الكبار ولد بمدينة ميغالوبوليس في ولاية اركادية من بلاد الاغريق سنة 205 ق.م. وتوفي 125 ق.م. وأرسل كرهينة إلى رومة سنة 128 فمضى بها 12 سنة وقد ألف تاريخه الكبير في 40 عاما لم يبق منه إلا خمسة كتب كاملة وبتف من البقية ويعتبر هذا التصنيف من أهم المصنفات التاريخية في العصور القديمة. وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد رافق بوليس القائد الروماني شيبون الاميلي أولا في مهمة سريعة لدى الملك البربري ماسنيسيا ثم طيلة عدة أشهر في الحرب البونيقية الثالثة فمكث ذلك من ملاحظة الرجال والأشياء والحوادث وتسجيل ما أراد تسجيله وأتيح له أن يستخبر البربر ويجمع أخبارهم وطالما جرت له أحاديث وانعقدت له مجالس مع الملكين البربريين ماسنيسيا وغولوسا. فسجل ذكرياته في الكتاب التاسع من تصنيفه الكبير. وعلاوة عن ذلك فقد اعتمد بوليس في أخبار الحروب البونيقية على ما كتبه المؤرخ اليوناني فليونس. هذا علاوة عن ملاحظاته الخاصة المباشرة.

على أن المؤرخين اليونانيين إذ أطنبوا في أخبار الحروب البونيقية فإنهم شحوا بأخبار البربر. فإذا كانت أخبار تلك الحروب مناسبة طيبة لنا لنتبين على نورها أحوال البربر في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد فما ذلك النور إلا بصيص ضئيل أتى بعد ليل حالك. فلسنا نجد في هذه الكتب عرضا منسجما واضحا عن

النظام السياسي والاجتماعي عند البربر ولا بياناً لحضارتهم فلا يهتم بهم المؤرخون إلا من حيث ما ساهموا به من نصيب في الحروب الكبرى التي دارت رحاها بين قرطاجنة ورومه.

ارتميدورس الرهاوي:

هو أحد الجغرافيين اليونانيين المشاهير عاش على رأس القرن الأول قبل المسيح. واشتهر في بلده اشتهارا كبيرا ونال حظوة كبرى وثروة طائلة ثم زار ايطاليا وأقام فنصلا برومة وزار اسبانيا وسواحل المحيط الأطلسي الأوروبية ثم شمال إفريقيا ومصر. وكان عالما جغرافيا قوي الملاحظة كثير الترحال والتطواف وقد طالع تصانيف من سبق من الجغرافيين والمؤرخين اليونانيين نخص بالذكر منهم تيموستينوس وايراستينس واغاترخيدس وبوليبوس. ألف " رحلة مطولة " جعلها شبه موسوعة جغرافية حشر إليها ما سبقه به غيره من العلماء إلا أنه امتاز بدقة الوصف والعناية ببيان نظام الحكومات وأحوال الشعوب وقد أفاض في وصف سواحل البحر المتوسط بكل تفصيل ويشتمل كتابه هذا على 11 سفرا جعل السفر السابع منها في وصف أحوال بلاد البربر. وقد ضاع هذا الكتاب الثمين وإنما نقل عنه استرابون نتفا بقيت لنا وهي من الأهمية بكان. إلا أن ضياع هذا المصنف يحرمنا من الحكم له أو عليه وتبين قيمته بالإضافة إلى تنوير الحوالمك من تاريخ البربر.

بورسيديونس الافامي:

هو أحد المفكرين والعلماء اليونانيين المولودين بسوريا ولد

حوالي 135 ق.م. وعاش 84 سنة ومات في منتصف القرن الأول وقد ذهب إلى مدينة قانس بإسبانيا للقيام ببحوث ودراسات علمية، وانتقل من هناك إلى إيطاليا فالتقت الرياح بالسفينة على السواحل المغربية، فاضطر لزيارة هذه الديار، وتحدث عنها في كتابين من تصانيفه أحدهما أحوال المحيط والأخر كتاب التاريخ، وكتاب التاريخ يمتد من سنة 144 إلى سنة 78 ق.م. وقد أسهب فيه عن أحوال الجغرافيا والتاريخ الطبيعي وطبقات الأمم وعاداتها. وهو من أهم الأمور لمعرفة أخبار البربر، يذكرها في الغالب استطرادا عند الحديث عن حروب يوغورطة وحروب بومبيوس مع يوليوس قيصر وعلاوة عما عرفه بنفسه عن البلاد فإنه قد اقتبس معلومات استمدتها من أصدقائه برومة أو من أهل قانس الذين زاروا موريطانيا.

ولقد ضاع كتاب التاريخ إلا أن ما يحتوي عليه من معلومات عن البربر قد نقله عنه مؤرخان كبيران أحدهما سالسطس الروماني والثاني استرابون اليوناني، وسنهمل الحديث عن الأول مؤقتا ريثما ننتقل إلى ذكر من تصدى لكتابة تاريخ البربر من اللاتينيين.

استرابون:

ولد بمدينة أماسيه بقابذوفيا نحو سنة 50 ق.م. ومات سنة 65 بعد الميلاد، وألف كتاب الجغرافيا الكبير وجعل القسم الأخير منه في وصف إفريقيا الشمالية وقد درس هذا المبحث العلامة الألماني شترنفر في كتاب سماه استرابون ودراسته لجغرافيا ليبيا

ونشره ببرلين بالألمانية سنة 1913.

ومن حظنا أن بقي لنا هذا الكتاب وإن كان فقير المادة فهو قصير فوق اللازم مشوش الترتيب لا يخلو من أغلاط مادية، فيذكر مثلا أن العاهل البربري أذر بعل حوصر بمدينة اوتيكه مع أنه حوصر في قرطبة (قسطنطينة) وهذا عجيب من مؤرخ كتب تاريخ حروب يوغورطة ضد أذر بعل ولعل الغلط صادر من ناسخ والنساح مساخ- ويقول إن جزيرة قوصرة واقعة وسط خليج قرطاجنة، وقد التبست عليه بجزيرة الجامور، ثم هو يذكر بعد ذلك قوصرة فيضعها في مكانها إزاء قليبية.

ولعل هذا القصر الفاحش في القسم المتعلق بالمغرب متأ من أن استرابون أراد أن يفرغ من تصنيفه على عجل. وان أخبار المغرب ليست من الأهمية في نظره بحيث تستغرق قسما مهما من الكتاب، وإذا استثنينا قرطاجنة فإن بقية بلاد المغرب لم تقم بأي دور في نمو الحضارة وازدهارها -هذا على رأي استرابون- . وهو إنما وضع كتابه ليكون درسا لرجال السياسة وتفسير للحوادث التاريخية الكبرى التي كان العالم القديم مسرحا لها، فالغرب لا شأن له في هذا الموضوع - على رأي استرابون طبعا لكي يفرد بمطولات الدراسات، أضف إلى ذلك أنه لم يزر بلاد البربر وإنما يتحدث عنها بالنقل عن غيره.

ومهما كان من الأمر فإن استرابون يفيدنا كثيرا عن الإمبراطوريات البربرية التي ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد مثل ملك يوبا الأول ويوبا الثاني ويوغورطة وغيرهم من كبار

ملوك البربر.

وألف استرابون أيضا كتاب في التاريخ يبدأ سنة 144. وينتهي سنة 27 واعتمد في كتابه التاريخي على المؤرخ الروماني تانوسيوس الذي ألف حوليات على عهد يوليوس قيصر، وعلى المؤرخ اليوناني ايسيقراط. ويظهر أنه لم يعتمد على كتاب حروب يوغورطه الذي ألفه المؤرخ الروماني سالسطس. ولا على كتاب حروب إفريقيا الذي ألفه يوليوس قيصر نفسه وذكر فيه حروبه بإفريقيا ولا سيما معاركه مع بومبيوس وقد اعترف استرابون بنفسه بجهل المؤرخين القدماء بأحوال البربر إذ قال: "أن معظم الشعوب التي تسكن ليبيا (بلاد البربر) مجهولة الأمر. فجزء قليل فقط من هذه الأصقاع قد زارته الجنود أو الرحالون الأجانب. وأما الأهالي من البربر فقليل منهم من زاروا أقطارنا وعلاوة عن ذلك فهم لا يريدون أن ينقلوا لنا كل شيء عن أخبار بلادهم وإلا نكن من ذلك أنه لا يمكن الاعتماد على ما هم ذاكرون".

قالماخس القريناوي:

هذا الشاعر. هو أشهر مثل للشعر اليوناني ومعرفة اللغة اليونانية بمدينة قريني ومدينة الإسكندرية ولد في القرن الثالث بمدينة قريني ودرس بها الآداب اليونانية ثم انتقل إلى أثينة عاصمة العالم الإغريقي. وأقام مدة بالإسكندرية وألف عدة تأليف شعرية ونثرية من جملتها أنشودة مطولة لابولو يقول فيها:

"..والرجال يرقصون مع الليبيات الزعراوات.."

ما يثبت أن سكان برقة من البربر يومئذ الذين ينتسبون إلى قبيلة الأسبوسست كانوا زعرا. وما يفسر لنا وجود الزعرة عند بعض القبائل البربرية.

نيقولاس الدمشقي:

عاش نيقولاس في القرن الثاني قبل الميلاد على عهد الملك البربري يوبا الثاني، وكتب في كل فن ومن أعجب كتبه تصنيفه ديوان الأخلاق العجيبة والعادات الغريبة وقد خص فيه البربر بمكان لائق وقد بقيت لنا من ذلك نتف ذكرها صاحب المجموعة المسماة صفار مؤرخي اليونان وهي محتوية الجزء الثالث من الصحيفة 362 إلى الصحيفة 436.

الليبيقيات:

إلا أن اليونان اعتنوا بتصنيف كتب سموها ليبيقيات أي دراسات ليبية أو بربرية، ونحن لا نعرف عن هذه التصانيف إلا ما قل، ويظهر أنها تأليف وضعها أصحابها بالنقل عن مصادر أخرى تختلف صحة وضعها. وهي في الغالب من نوع التصانيف الاغترابية التي تحكي نوادر الشعوب للمتعة والاستغراب والتشويق لا للفائدة العلمية.

وإليك أهم هذه التصانيف الليبيقيات:

أ - ليبيقالوقوس العجوني من أهل القرن الرابع وهو قد صنف كتابا في تاريخ ليبيا (انظر نتف التاريخ اليوناني 260 ص 373).

ب - لبيقا في ثلاثة أسفار ألفها اغرويطاس القريناوي من أهل برقة كان يعيش في القرن الثالث قبل الميلاد وتاريخه اسطوري ميثولوجي ويعني ميلاد برقة وما جاورها من الجهات.

ج - لبيقا في ثلاثة أسفار على الأقل منسوبة إلى هيسيانافس الذي كان يعيش في أوائل القرن الثاني ق.م.

د - لبيقا من وضع بوسيدونيوس الالبي من أهل القرن الثاني أيضا.

هـ - لبيقات في ثلاثة أسفار على الأقل تأليف الاسكندر بوليستور الذي ألف تصنيفه بإيطاليا في القرن الأول قبل الميلاد.

و - لبيقا شارون القرطاجي وهو رجل كان يعيش بقرطاجنة البونيقية أو قرطاجنة الرومانية في عصر مجهول وألف تصنيفا في مشاهير الرجال والنساء ورحلة في البحر الأطلسي فيما وراء أعمدة هرقليس (جبل طارق).

هؤلاء هم أشهر اليونانيين من جغرافيين ومؤرخين الذين اعتنوا بدراسة البربر بخطوط مختلفة، وقد نستغرب كثرتهم كما نستغرب قلة الجدوى من تصانيفهم التي لم تبلغنا منها إلا نتف في الغالب.

ونستطيع أن نقسم هؤلاء اليونانيين إلى ثلاثة أقسام:

أ - القسم الأول: اليونانيون الذين كانوا يعيشون بقرطاجنة البونيقية وكانوا يؤلفون باليونانية لقراء بونيقيين منهم

فيلينوس الجرتنتي (من صقلية) الذي ألف تاريخ الحرب البونيقية الأولى وقد مال في تاريخه إلى القرطاجيين ضد الرومانوسوسيلوس ورفيقه سينوس اللذان كانا يرافقان القائد الكبير حنبل وقد وضعنا تصانيف في ترجمته. ولكن الفلسفة شاعت بقرطاجنة وقد "تهلنت" الأرسطوقراطية وتأثرت بالحضارة الهلينية اليونانية وبآداب اليونان وعم ذلك الرجال والنساء حتى لقد كانت وسوفونيسييه الشهيرة متبحرة في آداب اليونان وفنونهم الموسيقية.

ب - القسم الثاني: اليونانيون الذين كانوا يعيشون بقرينا عاصمة بلاد ليبيا يومئذ، وقد كانت قرينا عاصمة من عواصم الحضارة اليونانية مثل أثينا والإسكندرية وشرشال بالجزائر وقرطاجنة إلى حد ما، فهؤلاء المؤرخون القريناويون هم أبناء البربرية العارفين بأحوالها.

ج - القسم الثالث: ويشمل المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الأصليين أو الذين هم من بلاد الشرق اليونانية أو المتهلنة أي المتأثرة باليونان.

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الأقسام الثلاثة أهل مدينة شرشال بالجزائر التي كانت عاصمة للحضارة اليونانية لاسيما على عهد الملك المستهلن يوبا الثاني، إلا أننا نؤثر أن نذكر يوبا الثاني في قسم الأدباء من ملوك البربر في عهد استقلاله.

4. المؤلفون الرومانيون

فتح الرومان قرطاجنة سنة 146 قبل الميلاد، ودام حكمهم

فيها إلى سنة 698 بعد الميلاد، على أنهم عرفوا البربر والقرطاجنيين في السلم والحرب منذ القرن السابع ق.م. فلا بد أن تشوفهم العلمي ومصالح استخباراتهم قد دفعتهم إلى معرفة أحوال هؤلاء البربر. وها نحن نستعرض أهم المؤرخين الرومانيين الذين درسوا البربر:

سالسطيوس:

هو مؤرخ روماني ولد سنه 86 ق.م. ومات سنة 30م. والمهم هو أنه تولى ولاية إفريقيا الرومانية من سنه 45 إلى سنة 46، إلى عام 45 فهو قد عرف البلاد مباشرة وعاش في عمر قريب جدا من عهد الفتح الروماني (146 ق.م.) وعهد حروب يوغورطة العاهل البربري وألف كتاب حروب يوغورطة وذكر فيه أصل البربر ونقل لنا كثيرا من أخبارهم وعاداتهم. ولم يقتصر سالسطيوس على معارفه الشخصية ومشاهداته ومروياته. بل اعتمد أيضا على من تقدمه من المؤرخين اليونانيين وبخاصة بوزيدونيوس.

وصف لنا سالسطيوس البلاد البربرية فقال: "إن الموضوع الذي سأطرقه يتطلب مني أن أقول كليمات عن موضوع إفريقيا وعن الشعوب التي اتصلنا بها فيها من طريق الحرب أو الخلف. وأما الأقطار والشعوب التي جعلها إقليمها المحرق أو جبالها المنيعه أو صحاريها المنقطعة عسيرة الوصول فيظهر لي أنه يتعذر أن اروي في شأنها أخبارا محققة مدققة: على أني -مهما كان - سأروي من ذلك ما قل أحدث عن البقية في إيجاز... إن بحر إفريقيا كثير الزوابع وسواحلها قليلة المراسي وأرضها خصبة من

الحبوب غنية من المروج، قليلة الأشجار ومياها وعيونها قليلة، ورجالها أقوياء خفاف في السباق أصحاب كد وجد في العمل.... وأقدم سكان إفريقيا من البربر هم الجيتوك بجذالة، غازولة، قزولة، جزولة... إلخ) واللوبيون: وهم شعوب نفورة مخشوشنة يأكلون لحوم الوحوش ويرعون العشب مثل القطعان. ولا يعرفون قيدا أخلاقيا ولا وازعا قانونيا ولا سلطة أمير؛ وليست لهم منازل قارة فهم يسبحون في الأرض على العمياء مغامرين حتى إذا ما جنهم الليل أووا إلى حيث أمكن. وعندما هلك البطل اليوناني هيرقليس، الذي مات باسبانيا حسب الرأي الشائع عند الإفريقيين، انتشر جيشه شذرمذ، وهو جيش مركب من رجال ينتسبون إلى جميع الأمم وتنازع الرئاسة عليه عشرون منازع، فتفرقت تلك الجموح في الأرض أيدي سبا. فأما الماديون والفرس والأرمن فانتقلوا إلى إفريقيا على سفنهم واحتلوا الأصقاع القريبة من البحر المتوسط، وزاد الفرس اقترابا من المحيط واتخذوا الأكواخ من سفنهم التي قلبوها على الأرض، لأن البلاد خالية من مواد الخشب، واسبانيا بعيدة عنهم كثيرا فلم يتيسر لهم جلبه من اسبانيا لا شراء ولا مقايضة لأن مسافة البحر وجهل اللغة يمنعان كل معاملة تجارية، ثم أن الفرس اختلطوا بالجيتوليين بواسطة الزواج، ولما كانوا كثيري الترحال فطالما تحولوا من منزل إلى منزل ومن محلة إلى محلة فسموا أنفسهم النوميديين أي المترجلين. وأما الماديون والأرمن فقد انضموا إلى اللوبيين لأن هؤلاء أقرب إلى بحر إفريقيا من الجيتوليين الذين كانوا يعيشون تحت قرص الشمس في منطقة محرقة وما لبثوا أن حلوا المدن

إذ لم يفصلهم عن اسبانيا إلا مضيق. فسرعان ما استقرت العلاقات التجارية بينهم وبين تلك البلاد.

ثم أن اللوبيين حرفوا رويدا رويدا كلمة ماديين فقالوا موريين.

وأخبرنا سالتستيطوس في شيء من الأطنان عن ملوك البربر حال استقلالهم خلال الحرب البونيقية الثانية فقال: " خلال الحرب البونيقية الثانية بينما كان القائد القرطاجني حنبل يلحق الضيم بمجد الاسم الروماني ويطعن الطعنات القاسية سلطات إيطاليا كان ماسينيسا ملك النوميديين من البربر الذي جعله القائد الروماني شيبون الإفريقي حليفا لنا فخدم قضيتنا باعتزام وأبلى البلاء الحسن. وأراد الشعب الروماني أن يجازي ماسينيسا عن حسن فعله فبعد الانتصار على القرطاجنيين واستاسار الملك البربري سفاكس كانت له بإفريقيا مملكة مترامية الأطراف قوية الشوكة. أعطى الملك ماسينيسا جميع المدن والأراضي التي وقع فتحها. وبقي هذا العاهل البربري معنا على العهد مراعيًا ألفاظ حلف نافع ومشرف، ولم ينته ملكه إلا بوفاته فلما هلك ورث ابنه ميسينيسيا وحده ملكه وسلطانه إذ قد كان المرض قد قضى على غولوسا وماناسطبعل ابني الملك الراحل. وأجّب ميسينيسيا ولدين هما اذرعيل وهيامبسال وتبنى يوغورطة ابن أخيه الهالك مانسسطبعل ورياه في قصره كأحد أولاده واعتنى به مثل عنايته بابني صلبه.

وتميز يوغورطة منذ نعومة أظفاره بقوة ملحوظة وجمال عجيب وعلى الخصوص متانة أخلاقه فلم يخلد إلى لذة ولا

انصرف إلى ترف. بل تعاطى جميع الرياضات الجارية في بلاده من رباط الخيل ورماية الحراب ومنازعة أترابه جوائز المسابقات... إلخ....."

وما نقله لنا سالتستيطوس من أخبار البربر وبيان أحوالهم في كتابه حروب يوغورطة كثير ولا يمكن التبسط فيه وقد تناول البحث العلمي كتابه بالنقد والتحليل مما لا يتسع لبيانه هذا المقام.

ونستطيع أن نضيف إلى سالتستيطوس -عرضا- الفلخ يوليوس قيصر نفسه أو احد كتابه بالأحرى الذي ألف دراسة عن حروب يوليوس قيصر بإفريقيا سماها حروب إفريقيا وهو عظيم الأهمية أيضا.

طيطش ليوس:

مؤرخ روماني شهير، ولد بمدينة بادوة بإيطاليا عام 59 ق.م، ومات عام 19 بعد الميلاد. ألف كتاب العشرييات أو العشرييات في تاريخ الرومانيين، وقد اعتنى فيه بإتقان الإنشاء وسمو القلم أكثر منه بتحقيق الحوادث.

كان هذا المؤرخ معجبا بالماضي وقاصا من الطراز الأول، فأشاد في كل مقالة بعظمة رومة والتمس في التاريخ موعظة ودرسا وموضوع بيان ساحر وخطب رنانة.

ويغلب على الظن أن بعض تراجمه بيت الحكمة في القيروان في القرن الثالث قد نقل هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية، وهو أحد مصادر ابن خلدون في بعض الأقوال، وتصنيف طيطش

ليوش ملوء بالبيانات فيما يتعلق بأخبار البربر في عهد ملوكهم من ماسينيسا إلى يوغورطه وهو قد أفاض في أخبار ماسينيسا وما كانت علاقاته مع القرطاجيين فإنه كان يهاجم أخصب جهاتهم ويقتطع أعمار أصفاعهم ويضمها إلى مملكته وعجزت قرطاجنة عن مقاومته بالقوة فلجأت إلى حكيم الرومان. فاسقطوا دعواها تارة وتغافلوا عن أعطائها الحق تارة أخرى بما سمح لماسينيسيا بان يبنى إمبراطوريته على حساب أهل قرطاجنة فاخذ السهول الكبرى أي سهول مجردة من سوق الأربعاء إلى طبرية. وأخذ جهة توسكا أي جبل خمير وغزا جهات من طرابلس إلى غير ذلك.

ويعتمد طيطش ليوش في مصادره التاريخية على برليوس في الأكثر كما يعتمد على مروياته الخاصة فقد انفرد ببيانات ووثائق لم ينقلها لنا غيره أفادنا فيها بجزئيات عن ماسينيسيا وأحفاده بما لم يفدنا غيره من المؤرخين.

وقد تبسط صاحبنا في أخبار حروب يوغورطه وانفراد ببيانات دون سالتطوس مؤرخها الشهير.

حدثنا طيطش ليوش في الأسفار 62 و 64 و 65 و 66 من معشراته عن حوادث إفريقيا من سنة 118 إلى سنة 105 ق. م. ولم يبق لنا من هذه الأسفار إلا ملخصات هزيلة ومن أهم الملخصات تأليف بولس هوروشيشوش الذي نقل إلى العربية في عهد عبد الرحمن الناصر بالأندلس واعتمده ابن خلدون في كتابته عن تاريخ الرومان ويسميه هرشيش وهو تصحيف من

النساخ على ما يظهر ونعلم من كتاب هوروشيشوش أن طيطش ليوش الذي كان يبغض ساططوس لم يتبعه في روايته حروب يوغورطه واستقل عنه في نقل الأخبار.

وبالجملة فهذا المؤرخ مصدر من أهم مصادرنا لمعرفة أخبار الإمبراطورية البربرية المستقلة من عهد مؤسسها ماسينيسيا إلى آخر أيامها بعد الاحتلال الروماني النهائي..

بوميونيوس ميلا:

هو أحد الكتاب الرومانيين الذين نشأوا بإسبانيا أمثال الفيلسوف سينيخا واللغوي كوينيليانوس. وألف كتابه الجوروجرافيا وهو أقدم تصنيف جغرافي ألفه الرومانيون. وقد وضعه ميلا سنة 44 بعد الميلاد. غير أن هذا الكاتب لم يعتمد على مشاهداته الخاصة ولا على آخر ما حدث ولكنه رجع إلى المصادر القديمة التي ألفت في القرن الرابع أو الثالث أو الثاني قبل الميلاد. فقد كان ميلا مثقفا أكثر منه عالما. فعول على مطالعته. واعتمد أيضا ساسططوس وكان به معجبا وعول أيضا على افلينوس وفارونس وكورنيليوس الحفيد وقد ترك هذا المصنف وصفا موجزا لإفريقيا الشمالية لا يرجع إلى عهد المصنف بل إلى عهد الجمهورية أي قبل عصر ميلا بنحو قرن.

افلينوس القديم:

كاتب روماني رياضي ولد بمدينة كومو سنة 23 بعد الميلاد. وألف التاريخ الطبيعي في 37 سفرا. وهو عبارة عن موسوعة ثمينة عن العلوم الرياضية والطبيعية وتاريخها في العصور

القديمة إلا أنها محشودة بالمعلومات التاريخية يذكرها بمناسبة أو بدون مناسبة وقد نقل لنا شيئاً ذا أهمية من أخبار البربر، ومات في انفجار بركان الفيزوف سنة 79 عندما حاول إنقاذ منكوبيه.

5 - المؤرخون من البربر:

استولى الرومان على عامة الديار المغربية من سنة 146 ق.م. إلى سنة 698 بعده، وترمنت البلاد في مؤسساتها وأجهزتها الحكومية والاجتماعية والاقتصادية ومظاهرها اللغوية والثقافية، وأقبل البربر على تعلم اللغة الرومانية محادثة وكتابة والتبحر في الخطابة والبلاغة والآداب اللاتينية بفضل ما وجد في البلاد المغربية من مدارس ابتدائية وثانوية، وعلى الخصوص بفضل جامعة قرطاجنة الكبرى والإرساليات الطلابية التي كانت تذهب إلى معاهد رومة للكرع من مناهلها العلمية وتخرج من البربر الكاتين باللاتينية مات من الشعراء والخطباء والأدباء والعلماء والأطباء والمحامين.

فلاشك انه تخرج منهم أيضا مؤرخون "وطنيون" محليون كانوا اعرف من الرومان بتاريخ البلاد وأخبار العباد.

وإذا استعرضنا تاريخ الأدب البربري باللغة اللاتينية واستقصينا أخبار من عنوا بالعلوم التاريخية وجدناهم ينقسمون إلى قسمين:

أ - المؤرخون بالمعنى الخاص، أي الذين احترفوا أصالة صناعة التاريخ فدونوا الأخبار وتقصوا الآثار.

ب- الكتاب الذين لم يعتنوا بالتاريخ مباشرة لكن انقدوا المجتمع فبينوا لنا عاداته وأخلاقه وفضائله ووزائله ومنازعه ومشاربه: والقوا المواعظ في الكنائس أو الساحات الشعبية العامة فبنوا العيوب ونعتوا الأدواء ووصفوا الدواء، أو ألفوا روايات قصصية وصفية فوصفوا لنا المجتمع في حالة نشاط وتدفق حيوية في أدق جزئياته. فنستطيع أن نذكر في القسم الأول القدير أوغرسنتينيس العنابي الذي أعطانا تفاصيل إضافية عن المجتمع المغربي عامة والبربري خاصة خلال القرن الخامس بعد المسيح وأسهب في البيانات التي شخخص بها المجتمع خصوصا في كتابيه الاعترافات ومدينة الله.

ونستطيع أن نذكر من القسم الثاني الكاتين تترليانوس وقبريانوس وقد انتقدا مجتمع عصرهما في القرن الرابع فصوراه لنا من وراء ذلك أبداع تصوير حي واقعي. فنرى مجتمع عصرهما حال حياته العائلية بالمنازل وحياته الدينية بالكنائس والأديرة، وحال حياته العامة في الشوارع والجامع والخمارات والمساح والساحات الشعبية والأسواق والحقول. ونستطيع أن نذكر من القسم الثاني الكاتب الروائي أبوليوس الذي ألف-فيما ألف- عدة روايات أهمها وأشهرها رواية الحمار الذهبي وهي تتناول الحياة العامة المغربية فنصفها وصفا دقيقا، وتستعرض الشخصيات البارزة القارة أو المباغته في كل مجتمع، ولو أن أحدنا قضى مدة في تحليل كل هذه المصنفات واستخرج منها المشاهد والأشخاص لصنف لنا كتابا جليلا في تركيب المجتمع البربري خلال الاحتلال الروماني.

وبالرغم من شدة رغبتنا في تناول هذا التحليل موجزا فإننا مجبرون بحكم ضيق المقام ومسايرة الموضوع مباشرة بأن نقتصر على القسم الأول من المؤرخين أي المؤرخين بالمعنى الخاص لهذه الكلمة. وأشهرهم :

فلوروس :

لعلنا نجد بين فلوروس المؤرخ الإفريقي في عصر الرومان. وبين ابن خلدون المؤرخ الإفريقي في عصر الحفصيين وجوه شبه كثيرة. أو لعلنا نستطيع أن نقول إن فلوروس هو حد أعلى "تاريخي" لابن خلدون فكلاهما فيلسوف تاريخ أكثر منه مؤرخ. وكلاهما باحث اجتماعي أكثر منه راوية أخبار. ولكليهما من العيوب والمخامد ما يكون أشبهه من الماء بالماء. ولعل البلاد الإفريقية إذا أجت مؤرخا فذا أوحث إليه من الصفات الخاصة والعامية والفنية ما يتفق اتفاقا كبيرا على بعد الشقة الزمنية بين المؤرخ والمؤرخ. وإذا كان ابن خلدون عربي الأصل إلا أنه يمني من حيث الانتساب الأعلى. وهو نفس النسب المعزو إليه البربر. وهو على كل حال قد عاش في بلاد البربر أصالة واتصل بحكومات بربرية من حفصيين بتونس وزبانيين بالجزائر ومربنيين بالمغرب. فإذا كان ابن خلدون كذلك فإن فلوروس بربري أصالة، وهو مثل ابن خلدون أيضا قد انتقل من بلاط إلى بلاط وخدم القباصة الرومانيين وراسلهم شعرا ونثرا وصنف لهم التصانيف فخير أحوال الدول ودرس دواليب الحكومات وعرف نفسيات الرجال والساسنة والموظفين ونزعات الشعوب: فتكونت له من ذلك خبرة مثل خبرة ابن خلدون.

لخص فلوروس تاريخ طيطش ليوش المعروف بالعشرات. لكن هذا التلخيص هو في الحقيقة محاولة لوضع علم فلسفة التاريخ : كما فعل ابن خلدون. ووجه شبه آخر بين مؤرخنا الأول ومؤرخنا الثاني هو تقسيم حياة الدولة إلى أربعة عصور النشأة والعظمة والانحطاط والانحطاط. وأسباب العظمة وأسباب الانحطاط.

وقد سار على غرار فلوروس بوسويه (1627-1704) ومونتسكيو (1589-1755) عند الفرنسيين. وفيكو (1668-1744) عند الإيطاليين.

وقد اعتنى فلوروس بتحليل التاريخ المغربي وأبدى أفكار قيمة ودرس بنور جديد تاريخ المغرب الروماني وأحوال البربر في هاتيك العصور. ونضيف إلى فلوروس ثلاثة مؤرخين آخرين من أصل بربري هم أيضا قد اعتنوا بالتاريخ العام وأيضاً بالتاريخ الخاص بشمال أفريقيا. وهم : مرونونوس القرطي (أي القسنطيني) واولوجيلس الذي ألف الليالي الاتكية وهي مذكرات سجل فيها الحوادث اليومية من جليلة وحقيرة التي شاهدها أو عاشها خلال حياته الطويلة. والثالث هو أوريليوس فيكتور وقد ألف أيضا في التاريخ المغربي.

على القدم ملؤا البسائط والجبال من تولوه وأريافه وضواحيه
وأمصاره".

ثم إن ابن خلدون يصف لنا أحوال البربر بالترتيب فيقول:

1 - مساكنهم "... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن
الخصاص والشجر ومن الأشعار والأوبار ..".

2 - معائشهم: "... ويظمن أهل العز منهم والغلب لانتجاع
المراعي فيما قرب من الرحلة لأيتحاوزون فيها الريف إلى
الصحراء والقفر الأملس. ومكاسبهم الشاة والبقر. والخيل في
الغالب للركوب الانتاج. وربما كانت الإبل من مكاسب النجمة
منهم -شأن العرب- ومعاش المستضعفين منهم في الفلح
ودواجن السادمة، ومعاش المعتبرين من أهل الإنتاج والاطعان في
نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة"

3 - ملابسهم وأثاثهم: ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف.
ويشتملون العمام بالأكسية المعلمة. ويفرغون عليها البرانس
الكحل. ورؤوسهم -في الغالب- حاسرة وربما يتعاهدونها
بالخلق."

4 - لغتهم: "ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها.
وهي التي اختصوا من اجلها بهذا الاسم"

5 - أخلاقهم: "... وأما تخلق البربر بالفضائل الإنسانية،
وتنافسهم في الخصال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم
مرفاة الشرق والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق. من
عز الجوار وحماية النزول، ورعي الذمة والوسائل. والوفاء بالقول

الفصل الثاني

ابن خلدون وتاريخ البربر

كان يجب أن نعنون هذا الفصل - تبعاً للسياق والترتيب
التاريخي العرب وتاريخ البربر، إلا أننا رأينا ابن خلدون بجمع في حد
ذاته هذا التاريخ فقد تشبع منه وتقمصه حتى صار عنواناً عليه.
ولو أن لأبن خلدون أسلافاً مؤرخين أشهرهم ابريوسف الوراق
وإبراهيم الرقيق وأحمد التيفاشي. وإذا كان الوراق أول من أفسح
المجال في تصنيفه المطول لدرس تاريخ البربر، فإن الرقيق أول من
أفردهم بالتأليف. والتيفاشي أول أو على الأقل أكبر من مجدهم
تمجيذاً وذكر مفاخرهم وصور بطولتهم. ولتوضيح تاريخ البربر
ينبغي أن نستعرض ما قاله فيهم ابن خلدون ملخصاً.

قال ابن خلدون: "هؤلاء البربر جيل ذو شعوب وقبائل من
خصى... ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس. بل إلى الاسكندر
عامرة بهذا الجبل ما بين البحر الرومي وبلاد منذ أزمنة لا يعرف
أولها ولا ما قبلها..."

وقال: "... الجيل من الآدميين (يعني البربر) هم سكان المغرب

والعهد. والصبر على المكاره. والثبات في الشدائد. وحسن الملكة. والإغضاء عن العيوب. والتجافي عن الانتقام. ورحمة المسكين. وبر الكبير. وتوفير أهل الدين. وحمل الكل. وكسب المعدوم. وقري الضيف والإعانة على النوائب. وعلو الهمة وابعاء الضيم. ومشاققة الدول. ومقارعة الخطوات. وغلاب الملوك. ربيع النفوس من الله في نصره دينه... فلهم في ذلك أثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لتبعية من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها. واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز وارفرت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم. ومضت في الخلق - بالبسط والقبض - أحكامهم.

6 - ديانتهم: رأى ابن خلدون بحصافة فكره وقوة ملاحظته أن عقائد البربر تطورت بحسب تأثرهم بمن زحف عليهم من الأمم. فقد تقلبت إلى ثلاثة:

أ- الماجوسية أو الوثنية:

قال " ... وكان دينهم دين الماجوسية شأن الأعاجم كلهم بالشرق والمغرب".

ثم دانوا بديانة من غلب عليهم من الأمم فتنصروا أولاً. ثم دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم.

ب- النصرانية - قال:

"... إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم. فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون على البربر فقد

غزتهم ملوك اليمن. نقل ابن الكلبي أن حمير أبا القبائل اليمنية ملك المغرب مائة عام. وأنه الذي ابنتى مدائنه مثل افريقية وصقلية. واتفق المؤرخون على غزو افري قش بن صيفي من التابعة إلى المغرب كما ذكرناه. وكذلك اغتزتهم ملوك الروم من قرارهم برومة (الرومان) والقسطنطينية (الروم البيزنطيون) وهم الذين خربوا مدينة قرطاجنة (146 ق.م). ثم جددوا بناءها - كما ذكرناه في أخبار الروم- واختطوا بسيف البحر وما يليه من الأرياف مدناً عظيمة وثيقة المباني. شهيرة الذكر. باقية المعالم والأثار لهذا العهد مثل سبيطلة وجلولاً ومرناق ووطاقة (أو تيكة أو عوتيقة وتسمى الآن بشاطر قرب بنزرت أول عاصمة للفينيقيين. أسست في القرن الثاني عشر قبل الميلاد). وزانة. وغيرها من المدن. وقد كان البربر دانوا لعهد الرومان والروم ذلك بما تعبدوهم به من دين النصرانية وأعطوهم المقادة وأدوا إليهم الجباية طواعية".

وفعلاً دخل البربر في الديانة النصرانية من أواخر القرن الثاني للمسيح إلى القرن السابع وكان لهم شهداء استشهدوا من أجل عقيدتهم النصرانية التي كانت الحكومة تقاومها في الأول. فلجأ المتنصرون الجدد إلى الخبايا التي تحت الأرض وهي سراديب ملتوية يعيشون فيها ويتعبدون ويدفنون موتاهم. ومن عثر عليه منهم سيق إلى المسرح حيث تطلق عليه الحيوانات الضارية المجموعة فتمزقهم أرباً أرباً أمام الجماهير للاتعاض. وقد تكونت عند البربر عدة شيع ونحل نصرانية أهمها الكاثوليكية والدوناتوسية والاروسية والوحدانية كما سنراه بعد.

ت- اليهودية:

دخلت اليهودية البربر مع البربر المتهودين الذين جاؤوا من اليمن، ثم مع اليهود الذين هاجروا من الشام بعد سقوط بيت المقدس وتخريب المعبد وزوال دولتهم ودخولهم في "الجلوة" Diaspora أي تشتتهم في الأرض شذر مذر. وبربر اليمن سكنوا الجبال في الغالب وبربر بيت المقدس سكنوا جزيرة جربة حيث توجد بقاياهم إلى الآن. وقال ابن خلدون:

"... وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية، أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لعرب الشام وسلطانه يومئذ منهم، كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة يقاثلون العرب لأول الفتح كما كان نفوسة من برابر افريقية. وقندلاوة، ومدبونة، وبهلولة وغيانة وبنوا فازار من برابر المغرب الأقصى، حتى محا إدريس الأول الناجم بالمغرب من بني الحسن بن الحسن جميع ما كان بنواحيه من بقايا الأديان".

ث- الإسلامية:

دخل البربر في دين الله أفراجا منذ سنة 27هـ أي منذ فتح العبادلة السبعة إثر وقعة سببيلة في الجنوب الغربي التونسي. وتم إسلام جميع البربر في أواخر القرن الأول إلا من قل منهم. وحسن إسلامهم وصاروا من كبار المناصرين للإسلام والمسلمين.

قال ابن خلدون:

"... وأما إقامة البربر لمراسم الشريعة، وأخذهم بإحكام

العلّة، ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصيانتهم والاستفتاء في الفروض أعيانهم وابتغاء الأدمة للصلوات في بواديهم وتدارس القران بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل عصرهم التماسا للبركة في أثارهم وسؤالاً للدعاء من صالحهم واعتيانهم البحر لفضل المرابطة والجهاد وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم ومتمين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومفادا إلى سلطانهم وملكهم..."

مصادر ابن خلدون:

ما المصادر التي اعتمدها ابن خلدون لدراسة تاريخ البربر؟ حل هذا المشكل المهم هر بيان لتفهم تاريخ البربر خلال العصور، وسنحاول فك هذا المعنى بما لدينا من الكتب. ويتضح من مراجعة هذا الكتب أن المصادر التي اعتمدها ابن خلدون لتحرير كتابه أربعة:

أ- المصادر البربرية السابقة للإسلام، وذلك انه لما نشبت الحروب البونيقية بين القرطاجنيين والرومان من القرن الثالث قبل المسيح إلى سنة 164 ق.م، تكونت إمبراطوريات بربرية بحتة أسسها زعماء وطنيون من البربر على حساب البونيقيين والرومان في الآن الواحد، واعتنى هؤلاء الملوك بتصنيف انساب البربر وتدوين تواريخهم واثبات مفاخرهم، وكتبوا هذه التصانيف باللغة البونيقية التي كانت لغة العلم يومئذ، وصنفوا بعضها

باللغة اللوبية التي هي البربرية القديمة المعروفة لذلك العهد.

مصادر تاريخ البربر عند ابن خلدون: كان ابن خلدون يحذق شيئاً من البربرية، ولاسيما البربرية الهنتائية التي كانت لغة البلاط عند الحفصيين. وقد لاقى مختلف اللهجات البربرية في رحلاته المتعاقبة خلال بلاد البربر والأندلس وكان يعرف شيئاً قليلاً من الإسبانية وخصوصاً اللهجة البلنسية التي كانت أيضاً لغة البلاط الحفصي. إلا أن معرفته البربرية ليست بالمقدار الذي يسمح له بالاطلاع على كتب البربر في لغتها الأصلية، ومعرفته شيئاً من الأعجمية الأندلسية مما سمح له بالاطلاع على الكتب التي ألقت في اللاتينية عن البربر وإنما اتصل ابن خلدون بهذه الكتب عن طريق الترجمة، فمصادره ثلاثة عربية ولاينية وبربرية.

ت- المصادر العربية: ألف العرب في نسب البربر منذ أول عهدهم بالتصنيف التاريخي أي في القرن الثاني للهجرة وأقدم من قام بذلك على ما يظهر النسابة ابن الكلبي ثم تعاقبوا بعد ذلك إلى عصر ابن خلدون. وإليك أهم النسابين:

أبن الكلبي: هو هشام بن محمد بن ابن نصر بن السائب الكلبي النسابة المؤرخ توفي سنة 206هـ وله كتاب الأنساب وبيوتات اليمن وقد اعتمده ابن خلدون.

عبد الله ابن قتيبة: (213-276) كاتب عربي شهير له كتاب الإمامة والسياسة وكتاب المعارف وفيهما كثير من أخبار إفريقية والمغرب وهو من أقدم من طرق موضوع البربر من مؤرخي العرب.

أبو جرير الطبري: (224-310) المؤرخ والمفسر له كتاب أخبار الرسل والملوك وقد تحدث فيه عن البربر واعتمده ابن خلدون في تاريخه.

أبو الحسن المسعودي: (توفي 345هـ) له كتاب مروج الذهب وهو من أقدم من كتب عن البربر اعتمده ابن الصغير في كتابه سيرة الملوك الرستميين والشماخي في طبقاته من علماء البربر.

أبو يوسف الوراق: مؤرخ وجغرافي تونسي ألف أطول كتاب في تاريخ المغرب وجغرافيته، فهو كان يعيش في القرن الرابع الهجري وقد اعتمده ابن حزم ثم ابن خلدون.

علي ابن حزم: (384-456) له كتاب جمهرة الأنساب وفي آخره انساب البربر، وقد اعتمده ابن خلدون.

إبراهيم الرقيق القيرواني: (توفي سنة 483) أول من خص البربر بكتاب في أنسابهم له كتاب انساب البربر وكتاب أخبار القيروان وإفريقية، وقد اعتمده ابن خلدون كثيراً. واعتمده الشماخي أيضاً.

الجرجاني: أبو الحسن علي بن عبد العزيز (290-366) له كتاب تهذيب التاريخ وهو ما اعتمد عليه في أخبار البربر.

ومزيب الماربخ وهو كما اعتمد عليه في أخبار البربر.

أبو بكر البيهقي المحدث (384-468) وله بسطة عن البربر في كتبه الحديثية لا سيما كتاب: الأسماء والصفات.

أحمد التيفاشي القفصي: من أبناء تيفاش عالم بالرياضيات والأدب والعلوم توفي سنة 651 وله كتاب: الدررة الفائقة في محاسن الأفارقة، من أحسن ما ألف في البربر وأخبارهم وأنسابهم ومفاخرهم.

ت - المصادر اللاتينية: مصادر ابن خلدون اللاتينية اتصل بها عن طريق الترجمة ثلاثة:

أولها: معشرات طيطش ليوش التي ترجمت إلى العربية بيت الحكمة بالقيروان في القرن الثالث.

ثانيها: تلخيص المعشرات لفلوروس الإفريقي ويحتمل أنها نقلت إلى العربية فاتصل بها ابن خلدون.

ثالثها: المؤرخ الروماني ذو الأصل الأسباني بولس هوروشيوث P.Orase الذي يسميه ابن خلدون "هرشيش" بالتخفيف وبدون مد. وقد ذكره في مواطن كثيرة من كتابه.

ث- المصادر البربرية : التي اعتمدها ابن خلدون ثلاثة أصناف:

الصف الأول: الكتب التي ألفها البربر في عصر استقلالهم وتكوين إمبراطوريتهم الأولى في القرن الثاني قبل الميلاد ما كتبه ملوكهم وعلمائهم باللغة البونيقية التي كانت إحدى لغات الثقافة بتونس يومئذ إلى جانب اليونانية واللاتينية والبربرية القديمة (اللوية).

الصف الثاني: نسابو البربر: اعتنى البربر في العصر الإسلامي بضبط أنسابهم وإحاقها بحمير في الغالب وامتازت

بذلك بعض القبائل لأسباب سياسية ودينية لاسيما القبائل التي قامت بدور أساسي في تاريخ الإسلام مثل كتامة وزاواوة وغمارة ومفلاطة وهوارة وصنهاجة وهنتاتة. ونحن نعرف أنساب أشهر النسابين وشيئا من ترجمتهم.

وقد بدأ هذا العمل منذ عهد الاغالبة إلى عهد الحفصيين. وأكثر هؤلاء النسابين يعززون إلى قبيلة مطاطه التي يوجد لها جناح بالمغرب وجناح بالجنوب التونسي فنحن نقسم هؤلاء النسابين إلى أربع طبقات:

الطبقة الأغلبية (184-296) أشهر هؤلاء المؤرخين أبو سهل الفارسي النفوسي حفيد الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بمدينة تاهرت بالجزائر. كان مترجم اللغة البربرية في دولة عمية الرستميين افلح ويوسف. وقد ألف ديوان شعر باللغة البربرية ضمنه تاريخ البربر وحروب الاباضيين والسنينيين. لكن هذا الديوان الثمين احرق بعضه النكاريون وأحرقت بقيته في قلعة بني درجين. فلم يبق منه شيء الآن وضاع الأمل أو كاد في العثور عليه. نقول أن الديوان ضائع الآن ولا مانع أن يكون موجودا في عصر ابن خلدون. وأنه انتفع منه لأنه قد جاء في عصر عز البربر وازدهار دولتهم الرستمية المعاصرة للاغالبة. ويمكن أن نلحق بأبي سهل الفارسي نسابين آخرين جهل عصرهما ويظهر أنه العصر الاغليبي وهما: خالد بن خداش المطاطي المغيلي (وتوجد بالجنوب التونسي قلعة ابن خداش). وخليفة بن خياط المطاطي المغيلي (ومغيلة بطن من مطاطة) ذكرهما ابن خلدون واعتمدها فيما يتعلق باستيلاء

أبي قرة الخارجي على القيروان سنة 150هـ.

الطبقة الثانية الفاطمية (296-361) وأشهر نسابيها من مطماطة أيضا، واكبر نسابي هذا العصر هو أبو أيوب أبي يزيد مخلد بن كيداد، وكان أبوه قد خرج على الفاطميين وجعل دولتهم قاب قوسين أو أدنى من هلاكها. ولد أبو أيوب في أواخر القرن الثالث ونشأ نشأة مؤرخ نسابية، وأرسله أبوه إلى بلاط الخليفة الناصر الأموي بقرطبة لينجده ضد الفاطميين وقتله عبد الله بن بكار سنة 333 وأرسل رأسه إلى المنصور العبيدي الفاطمي واتصل أبو أيوب بابي يوسف الوراق أكبر مؤرخي العصر الفاطمي وواضع أكبر موسوعة في تاريخ المغرب وجغرافيته وأعطاه نسب البربر عامة ونسب أبيه خاصة الذي هو في قبيلة يفرن ويرتفع إلى جانة وزناتة في 11 طبقة زاد عليها ابن خلدون طبقات أخرى لإكمالها. وقد نقل عنه ابن حزم هذا النسب في كتابه جمهرة الأنساب واعتمده أيضا -نقلا عن الوراق- في نسب مدغيس والبرانس إلا أن رواية هذا النسب تخالف رواية سابق المطماطي وهاني بن مزدور وكهلان.

ومن نسابي هذا العصر أبو محمد بن يغني البرزالي الباضي. وكان البرزالي رجلا فقيها تقيا عالما بأنساب البربر. وقد روى عنه ابن حزم في جمهرته انساب البربر ومن كان منهم من الباطنية ومن كان من السنية. ثم نقل ذلك ابن خلدون عن ابن حزم.

الطبقة الثالثة: العصر الصنهاجي (361-555) وأشهر النسابين في هذا العصر: كهلان بن أبي لؤي بن ازلاسن المطماطي

وهو رجل عالم بأنساب البربر ذهب إلى الأندلس لدى علي الناصر بن حمود الصنهاجي أمير مالقة (407-408) وقد اعتمده ابن خلدون في دراسة البربر.

الطبقة الرابعة: العصر الحفصي (555-900) وأشهر نسابي هذا العصر إبراهيم بن عبد الله التمزوغتي الذي عاش قبل ابن خلدون بمدة يسيرة. واعتمده هذا الأخير في بعض الأنساب نقلا عن ثقة رواها له عنه.

إلا أن كثيرين من نسابي البربر لا نستطيع تعيين عصرهم ولو على وجه التقريب، وفي مقدمتهم أكبر نسابيهم على الإطلاق: سابق بن سليمان بن الحراث بن دوناس المطماطي. وطالما ذكره ابن خلدون بإكبار وتمجيد وقد سماه أكبر نسابي البربر فيما يتعلق بنسب برنس بن يزيد مازيغ بن كنعان، ونسب لؤ الأصغر. فروع نفازوة ولماية وورتناجة وهوارة ويقول ابن خلدون أن سابقا إمام نسب وشيخ جماعة.

ومن نسابي البربر أيضا الذين لا نعرف عصرهم:

هاني بن مزدور بن مريس بن نفوت الندرومي الكومي وهاني بن بكور الضريسي وغيرهما.

وهناك طبقة أخرى من النسابين الذين جهل حتى أسماءهم، فهم قد عنوا بإيجاد نسب قبيلة بربرية من كتامة وزاوة وغمارة ومقلاطة (وإليها تنسب مدينة البقالطة بالساحل التونسي فقد نقل البقالطة علي بن يحيى الصنهاجي سنة 515هـ وأسكنهم بالبلدة المنسوبة إليهم الآن فرارا بهم من هجمات

قبيلة سبخاس التي كانت تغزوهم بجهة قفصة (وابدال الميم باء جاز في العربية والبربرية فنقول مكة وبكة) وعنايته تلك لإثبات نسبهم في العروبة لرفع مركب عنهم ومزاحمة العرب في أرومتهم لإغراض جنسية وسياسية، نستطيع أن نتبين أمثالا لها في التصانيف البربرية كتب الأنساب من ناحية، وكتب الطبقات والسير من ناحية أخرى. أما كتب الأنساب فلها غرض سياسي ظاهر قد بيناه، وهي أعم لأنها تشمل جميع قبائل البربر، أو على الأقل القبائل النابذة منها ذات الدور الكبير، وأما كتب الطبقات والسير فهي تعني طبقات الاباضيين وسير الأئمة السياسيين أمثال بني رستم أو أئمة المذهب الاباضي طبقة بعد طبقة، فهي ذات موضوع مذهبي أولا، وذات دائرة أخص فلا تشمل من البربر إلا من كان على مذهب محمد بن اباض وإذا كانوا كثيرين في عصر بني رستم فهم أقل كثرة فيما تلا من العصور، ولهذا كانت عناية ابن خلدون بهذا النسب أقل. وإذا تبينا هذا من جهة الموضوع، فنستطيع أن نتبين من جهة اللغة ثلاثة أطوار أيضا، ففي الطور الأول كانت اللغة البربرية سائدة والتصانيف بها اظهر لأن عموم البربر كانوا يجهلون العربية وكان خواصهم يعرفونها. ناهيك أنه منذ القرن الأول ظهر شاعر يسمى سابق بن عبد الله البربري أوقف أغلب شعره على مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي.

وفي هذا العصر الأول ألف مؤرخو البربر تصانيفهم في الطبقات والسير بالبربرية دون غيرها إلا أن هذه التصانيف قد ضاعت وإنما اعتمدها من أتى بعد هؤلاء فوضع كتب الطبقات

والسير، مثل الوسياني والدرجلين والشماخي والبرادي. ويظهر أن هذا الطور الأول يبتدئ من أوائل القرن الثاني وينتهي في أواخر القرن الثالث.

والطور الثاني هو الطور العربي البربري الذي يوافق ظهور الحكومة العربية البربرية مثل الحكومة الزيرية بتونس والحمادة بالجزائر، ففي هذا العصر جمع الكتاب بين اللغتين في تصانيفهم وهذا الطور يبتدئ من أوائل القرن الرابع وينتهي في أوائل السادس.

والطور الثالث هو الطور العربي البحث فقد صنف أصحاب السير والطبقات بالعربية دون غيرها وإن أقحموا عدة مفردات بربرية ضمن السطور.

الخصائص البشرية كبياض القوقاسي وزعرة الشعر المتصف بها الشماليون.

ب- الأصل السامي:

ومعظم الباحثين يذهبون إلى أن البربر من أصل سامي أولي من أبناء سام بن نوح لا يافت بن نوح. فقد كانت الجزيرة العربية موطن الساميين مغطاة بالثلوج في شمالها، فكانت اليمن بلاد اليمن والخير وهي مهد أبناء سام الأولين مختلطين مع أولاد أعمامهم أبناء حام، فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحلت البلاد وتفرق سكانها فانتقل الفرع السامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين إلى أفريقيا واستوطنوها فانفرد البربر بشمال أفريقيا والحبشة بإفريقيا الشرقية والسودان بإفريقيا الشرقية والوسطى. وهذا ما ذهب إليه العرب وهر مشهور المذهب عند الأوروبيين اليوم لاسيما علماء الألمان الذين هم نزهاء في بحوثهم، ويتبعهم في ذلك الإيطاليون.

ت- الأصل المزدوج:

ويذهب فريق ثالث إلى أن البربر ينتسبون إلى سلالتين، فالسلالة الأولى هي الهندية الأوروبية التي نزحت إلى أفريقيا من آسيا ثم أوروبا على الطريق التي ذكرنا وبالأسلوب الذي ذكرناه: والسلالة الثانية سامية أولى كما وصفنا، ثم التقت السلالتان بالمغرب وهذا ما يفسر لنا اختلاف الخصائص البشرية عند البربر في السحنة ولون الشعر والعيون وشكل الجمجمة وحتى اللهجات، وهذا ما يفسر أيضا الخلاف القائم بين مضمودة

الفصل الثالث

البربر في التاريخ

1 - أصل البربر

النظريات المتعلقة بأصل البربر ثلاث:

أ- الأصل الأوروبي:

يذهب البعض من العلماء إلى أن البربر من أصل هندي أوروبي، أي من الأصل اليافتي المنسوب إلى يافت بن نوح عليه السلام، خرجوا في عصور متقدمة من الهند ومروا بفارس ثم بالقوقاز، واجتازوا شمال أوروبا من فينلاندا إلى اسكندينايا ثم بريطانيا الفرنسية ثم اسبانيا، ويستدلون على ذلك بالمعالم الميغاليانية أو معالم الحجارة الكبرى من المطاطب (الدولين) والمسلات (المنهيد) والمستديرات (الخرومليكس) التي بثوها على طول هذه الطريق وهي توجد بشمال أفريقيا وتنتهي بالمفيضة، كما يستدلون باسماء قبائل الكيمارين بفينلاندا والسويد وبني عمارة في المغرب وخميس بتونس فالأسماء متشابهة جدا: أو بالحرف الروني المنقوش على المعالم الميغاليانية فإنه يشبه الخط اللوبي المنقوش على الصخور بشمال أفريقيا ولبعض

2 - ملوك البربر قبل البونيقيين:

ارتقى البربر رويدا رويدا من رئاسة القبيلة عند قدومهم إلى المغرب بأثر انتهاء العصر الحجري إلى "جمهورية" القرية التي تتألف من "الجماعة" ورئيسها. ثم رويدا رويدا أسسوا الحكم الملوكي وأسلسوا قيادهم إلى ملوك صغار يسمى الواحد منهم "جليد" وأخذت هذه الملوكية تتجمع كتلة كتلة إلى أن عمت جهات بعينها.

3 - ملوك البربر في العهد البونيقى: (815ق.م.-

146ق.م.).

إن الأطراف التي بقيت بعيدة عن الحكم البونيقى المباشر، أي عن سلطان قرطاجنة نفسها حاولت مرام إنشاء ممالك دامت طويلاً أو قصيرا وتوقفت قليلاً أو كثيرا واستقلت عن القرطاجنيين إن أكثر وإن أقل. وهذه الجهات في الغالب هي الصحاري والجبال والأقاليم الداخلية البعيدة عن الساحل الواقع تحت نفوذ البونيقيين.

أ- الإمبراطورية الغربية:

نلاحظ في تاريخ إنشاء الإمبراطورية البربرية ثلاث مراحل تطابق الظروف والمناسبات وسياسة المقاربة، فلما كان المغرب الأقصى بعيدا عن تأثير القرطاجنيين والرومان في الآن الواحد فقد نشأت فيه أول إمبراطورية قبيل القرن الرابع ق.م.

ب- الإمبراطورية الوسطى:

في القرن الثالث أمس العاهل البربري سيفاكس إمبراطورية كبرى بالمغرب الأوسط جعل عاصمتها مدينة قرطبة أو قسنطينة وكانت تعمرها من القبائل البربرية قبيلة الجيتوليين (جدالة) وماسولة (ولعلها مزونة) وكان من عظمة هذه الإمبراطورية البربرية أن قرطاجنة رغبت في حلف سيفاكس وأعطته بنتا من الأرسطوقراطية العليا واستقل سيفاكس بالجزائر كلها وجلب معالم الحضارة اليونانية وعقدت به آمال الاستقلال البربري لولا أن أنهار سلطانه دفعة واحدة سنة 203ق.م.

ت- الإمبراطورية الشرقية:

اغتنم ماسينيسا انهيار ملك سيفاكس وقرطاجنة في الآن الواحد. واطهر الولاء للرومان مخاتلة وكون إمبراطورية في القسم الشرقي من نوميديا والغربي من الملكة التونسية. وجعل عاصمتها قرطبة ولعلها قرطبة الثانية التي هي مدينة الكاف، وكان رجلا عظيما وضع للبربر حكومتهم وأنشأ اقتصادهم وحرر ثقافتهم فهو شبيه جدا بيزي مناد الصنهاجي الذي صانع الفاطميين حتى أورث أحفاده ملكهم.

ث - إمبراطورية يوغرطة:

إلا أن المرحلة الكبرى في سبيل الاستقلال البربري خطاها يوغورطة بن غايا الذي أعلن الحرب على الرومان وعلم أنهم أمة مبتاعة لمن يريد شراءها بالمال. وأسس إمبراطورية شامخة الذرى وتمسك بالقيم البربرية وأحيا المعالم الوطنية وشنها حربا

ضروسا على الرومان جعلت ملكهم قاب قوسين أو أدنى من الموت. ونحن نتخذ من تاريخ يوغورطة دروسا ثمينة في نزعة البربر نحو توحيد البلاد وإنشاء الدولة وتكوين الإمبراطورية وما أشبهه يوغورطة بباديس ويوسف بن تاشفين وعبد المومن بن علي وأبي زكرياء الحفصي لولا الفرق بين الفريقين في حظوظ الحرب وإيلولة النصر. فقد تغلب الرومان بالنهاية وانتصروا على القرطاجنيين ويوغورطة معا ووقعت البلاد في قبضتهم وأسسوا نظام ملوك الحماية، فاقطعوا يوبا الأول ثم يوبا الثاني قسما من البلاد على نية استرجاعه من أحفاده فيما بعد عندما ترسخ قدمهم في البلاد، وانصرفت همة يوبا الثاني إلى العلوم والآداب والفنون اليونانية فجعل عاصمته شرشرال موطنا للحضارة اليونانية وانقطع إلى تأليف المصنفات والموسوعات. وانتهت الإمبراطورية البربرية ولجأ الرومان إلى الحكم المباشر وسط الثورات المتتالية إلى أن زال ملكهم وانقطع طغيانهم ودار عسفهم عليهم وجاء ملك الإسلام فوجد فيه البربر مجالا لتجديد الإمبراطورية كما سنرى.